ميقبال رضى
سلطانُ الرِّيحِ العَاصِفْ

سلطان الريح العاصف

اسم الكتاب: سلطان الريح العاصف

اسم الكاتب: ميقبال رضى

نوع العمل: نصوص

الرقم الدولي EBIN: 16-1-374-250425

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2025م / 1446هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

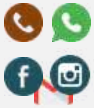

داربسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)

Darbassma1@gmail.com

المملكة المغربية

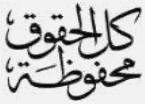

دار بسمة للنشر الإلكتروني تقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأي صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو كان، أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

سلطان الريح العاصف

نصوص

ميقبال رضى

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

الفصل الأول

قبل أن تشرق شمس الحياة الحقيقية التي كنت أتغاضى عنها، كنت أسترق النظر لأرى من نافذة غرفتي أطفالاً جياعا متشردين ولا أبالي، وآخرين في جنونهم ناعمين، ونساء أثقل كاهلهن جور الشهور والسنين.

لا يفصل بين عالمنا المتخم بالمال والسلطان وبين أزقة الفقراء سوى بقية من أحياء وأسوار المدينة القاتمة. لقد لقبتهم فيما سبق بالعالة على المجتمع وضحايا التاريخ وصراعه، إنها الفئة التي تلوث مدينتنا عند مطلع كل شمس ومنتهى كل قمر.

ولدت في حي النهضة برباط الفتح، والداي من أشراف وعلية القوم وسليلة الأسر البورجوازية التي تعاقبت على هرم المجتمع منذ الاستقلال.

من يقف أمام أسرتنا المتخمة بالمال والجاه، أصحاب الفخامة أولو الأمر والنهي والاستعلاء.

تجرعت أول قطرات الثراء من السيدة فدوى. أمي التي حولتها رياح الحياة إلى آلة قبل أن تتساقط كما يتساقط القمر في ريعان شبابه، ذلك القمر الذي أنار درب السائرين، وهدى العديد من الحائرين مثلي، إنها حريصة على تربيتي تربية الأكابر، أصحاب المعالي والشموخ.

يسهر على خدمتي عدد كبير من الخادمات اللائي يتغيرن عند منتهى كل أسبوع. إن ثراء هذه الأسرة فاحش جدًّا وغناها منقطع النظير. هكذا تشرئب الدنيا وتحلو في ناظر كل محتاج.

تلقت والدتي دروس الكبرياء من جدي وجدتي، وما أزال أذكر حتى الآن حدثاً قد وقع في الثانية عشرة من عمري، حين كنت ألعب بالبيانو الموجود في مقصورة الضيوف التي تسع شقتين. وبينما أتلذذ في ساحة السكينة والهدوء حيث الصمت أرخى سراياه، إذا بي أسترق

السمع من غرفة بجانبي. أبي وأمي يتحدثان عن حفل مزمع إقامته عندنا في الفيلا، بالإضافة إلى شخصيات وازنة ستكون ضيف شرف هذا الأخير.

والداي مندوبان لدى وزارة الاقتصاد والمالية، وأجرتهما تتجاوز ثلاثين ألف درهم في الشهر للشخص الواحد، بغض النظر عن مشاريعهما الخاصة في بيع وشراء الأراضي والمواشي والوحدات السكنية المنتشرة في المدينة تحت اسم وحدات النور. وعدد من الحسابات البنكية المكتظة بالأموال.

يا للثراء الذي حظيت به، ويا له من حظ كبير أن يحظى المرء بالمال من دون عناء. كنت على يقين أن الحفل لن يقتصر على شخصيات الوزارة فقط، بل هناك شخصيات من وزارات أخرى آثرت أن تحضر حفل تكريم والديَّ بعد إحالتهما على التقاعد.

كان الحوار الذي استرقته منهما حول كيفية استقبال هذه الفئة والطقوس المرافقة له. تستدعي أمي الخدم من أجل أن تخبرهم بأنواع المأكولات والمشروبات التي يجب أن يحضروا هذه الليلة، بينما أبي اتجه نحو حراس الفيلا، حيث أمرهم باستدعاء حراس آخرين كي يؤمّنوا هذا الحفل.

لن أخفي شعوري في هذه اللحظة، حيث دفعني ضجيج عقلي وقلبي إلى طرح العديد من الأسئلة حول ما إذا كان هذا الحفل مناسبا أم لا. توجهت إلى غرفتي ثم اتصلت بصديقي «يافع».

أتساءل مع نفسي هل يستطيع «يافع» صديقي الوحيد الذي خفف عني عناء الوحدة وقسوتها أن يعينني في فك طلاسم هذا الوضع الذي أتواجد فيه، إنني لا أصدق أنني ثري بهذا الشكل. لا أصدق أنني الوارث الشرعي الذي سيظفر بكل التركة على حد سواء. رفعت سماعة الهاتف على أمل أن أجد صديقي مستيقظًا، وكلي يقين من كونه ما يزال في عوالم الدنيا السبع غارقًا في أحلامه التي تسع الورى بأكمله. يحدثني تارة عن فيل أزرق يطير في عنان السماء، يحمل مزمارا من ذهب يغني للثقلين أنشودة المطر، وتارة يخبرني بكونه سقط من أعلى العمارة باحثا عن المال المفقود. أحلامه لا تنتهي أبدًا، ولمثل ذلك كان يقول: لا بد للمرء الذي يراهن على حياة أن يحلم كي يعيش، وألا ينهي حلمه بيده كالريح العاتية حتى لا تسود الدنيا في ناظريه.

– أهلًا يافع كيف حالك؟ هل أنت مستيقظ أم لا؟ حدثني بما رأيت الليلة؟

لا أسمع سوى تمتمة رجل مخبول يهذي بأصوات غير مفهومة، علمت أنه ما يزال مخدرا بنومه العميق.

لا بأس، سأمرُّ عليك بعد الظهيرة، ومن ثَمَ نذهب إلى المسبح البلدي لنحضر حصة السباحة، ونرقص بعدها على أنغام دموع الأحياء الأموات الموجودين وراء جدار العار. ولكن من سيحضر حفل الليلة؟ ومن هم هؤلاء الشخصيات الذين سيتناولون ما لذ وطاب من عمر أمي وأبي؟؟ لم أر قبل يومي هذا سوى الحاج الحسن بن محمود صاحب العقارات والمحلات التجارية بمدينة فاس. كان الرجل الوحيد الذي يتأرجح سبتا وأحدا على منزلنا، ويقضي مع أبي وقتا مرحا ينتهي بتوقيع بعض الأوراق. لطالما تساءلت منذ صغري عن طبيعتها، ولماذا يوقع أبي كل أسبوع عليها، إلى أن اكتشفت بعدها أنها توكيلات شخصية، تخول لهذا الشخص التصرف في ممتلكات والدي، خاصة المتعلقة بالوحدات السكنية المنتشرة في أرجاء البلد... والحق أقول: لقد كان رجلًا وفيًّا ومخلصا، وعند متم كل أسبوع يصطحب الأموال الطائلة ليضعها فوق سفرة والدي. إنها حياة البذخ والترف يا رجل، يخاطبني شيطاني اللعين. لمن ستكون هذه الأموال في آخر المطاف، أنت في حضرة عائلة متخمة بالمال، ولا حاجة لك بعدما رأيت إلى أراجيز النكد والتشاؤم والبكاء.

تشير الساعة إلى الرابعة عصرا، لا شك أن «يافعا» قد استيقظ واستوفى نزغاته البهلوانية... نزلت من غرفتي واتجهت صوب سرداب الفيلا كي أتفقد سيارتي، لكنني وجدت غيرها. لقد اشترى لي أبي سيارة أخرى من دون أن يخبرني. أصابتني دهشة معتقة بأطلال من الفرح لتقتلعني من عوالمي المعتمة. وفي طريقي إلى منزل يافع مررت بجانب أحياء مميتة وأزقة مسفرة. هل توجد حقًا مثل هذه الأشكال في الدنيا! من هؤلاء البؤساء الذين لوثوا أرجاء المدينة؟ ألم يحن الوقت كي ينتهي عهدهم ويبتعدوا عن هذا الجدار؟ انظر للملابس والأقمشة البالية التي يضعونها في الطريق. يا للعار الذي أصاب المدينة. لقد امتلأ الفضاء بأمثال هؤلاء الحرافيش الجياع. إنك لن ترى حقيقة من تعتبرهم شرذمة المجتمع من أعلى، لكونك غارقًا في العسل، ولأنك من علية القوم، أفلا يحق للإنسانية أن تعيش وتبحث عن سبيلها، أم أن وحدك من يمتلك صلاحيات الحياة أيها الغني البائس؟

يا لهم من أنجاس خائنين، ألا يعلمون أنهم يشوهون صورة أحيائهم قبل أن يصلوا إلى أحيائنا؟ يقول والدي: مادام هذا الجدار موجودا بيننا، فلا بد أن ينتقل الداء إلى طبقتنا الغنية في يوم من الأيام.. يقصد بالداء الفقر. وكان يقول أيضًا: سأتحدث مع كبار الشخصيات في قطاع الإسكان كي يخلصونا من هؤلاء، وتبوء أنفسنا بحياة مستقرة إلى الأبد.

إن بعضًا ممن سيحضر حفل الليلة هم المعنيون بخلاص حيّنا من شقاء وتعنت هؤلاء البؤساء، الذين لوثوا بشيّهم وفقرهم هذه المَدينة، فكيف ستكون ردة فعلهم من جديد، وما مَوقفهم من دور الصفيح؟ وصلت أخيرا إلى منزل يافع بعد كمين هذه الأزقة، لكنني على يقين أن هذه الأحياء مكتظة بالمجرمين والأوباش. ما فتئت تفرخ في كل موسم عددًا من الخارجين عن الأعراف والنظم والقوانين... حفنة من الجياع المتمردين المتشبعين بفلسفات وإيديولوجيات الذين نجحوا في خداعهم بأفكار الثورة والنضال والمطالبة بالحقوق والمساواة. ألا يعلم هؤلاء أنهم هنا دون حقوق، وليس لهم الحق في المطالبة بأي شيء، ما دام لا شيء يعجبهم هنا. فلتناموا في أجداثكم حائرين، ولتنعموا بحياتكم على ضاحية الأغنياء، واشكروا من كان سببا في وجودكم حقًا، من خوَّل لكم البناء في هذه الأرض الفلاة.

فررت من جمع هؤلاء الحمقى رغما عن يافع الذي أراد أن يردي أحدهم أرضًا بعد نظرات نتنة، أقنعته بعدم التهور، فليلتنا زاهية ممتدة على ناصية أحلامهم، ورهاننا أكبر من حطام هؤلاء المرضى.

تشير الساعة إلى الثامنة ليلًا، وقبل أن نصل إلى الفيلا اشترينا بعض الألبسة الفاخرة. أحذية فاخرة، وساعات يدوية كالكواكب،

يكدن يضئن للساري الظلام، فأما الأقمصة فهي بشتى الألوان والأشكال.

كنت أكلف يافعا بهذه المهمات بالنظر لنحافته وقلة نظره.. أريد أن أتخيل منظر الأب المثالي الذي ينتظره لاحقًا... لقد خاب ظني هذه المرة، واكتفى ببضع وريقات زرقاوات، وبحركاته غريبة الأطوار انتهينا من تمثيل هذا المشهد. حان موعد الحفل، وها نحن بالقرب من الفيلا، حيث مواكب السيارات لا تنتهي.

إنها اللحظة التي أنتظرها بفارغ صبري. بعد أن صعدت إلى شقة صديقي وجدت جمعا من الشباب ومعهم بعض الممنوعات، حينها علمت أن يافعا كان مخدرا حقًا، ليس بتأثير النوم، بل بأشياء أخرى. يا للروعة، النبيذ هنا وهناك، وشيء من الطابة ملقًى على المائدة.

ناولني تلك القطعة فقد اشتقت لها، أولسنا نحن من استولينا على أموال هذه المنطقة؟ فكيف لا نستولي على ممنوعاتها؟

– دعنا نستمتع قليلًا وننسى عوالم البؤساء التي نراها كل يوم. يا صديقي، ألم تتحدث إلى والدتك؟ ألم تخبرها بحقيقة هذا الوضع.

– لا عليك، إنها هي الأخرى غارقة في عسل الدنيا، وليس لها الوقت كي أفاتحها في موضوع كهذا، لأني أعلم أنها سوف تموت قهرا من فورها إن علمت بأمر إدماني.

– لننس يا صديقي هذه الأرجوزة، ودعنا نستمتع رفقة الأصدقاء قبل أن نستيقظ حقًا في المسبح البلدي.

– لكن ما هذه الأقمشة الحمراء المنتشرة هنا وهناك؟

– لا تسأل كثيرا، إنها لذويها، فلا تكترث بها ودعنا نمر سالمين من هنا.

رغم كوننا نتعاطى المخدرات بشتى أنواعها، ونفعل كل شيء كما يحلو لنا بأموال والدينا، إلا أنني كنت أتأسف في خلوتي كثيرا، لأننا نحاول حجب ضعفنا وهزيمتنا بكأس خمر أو ليلة حمراء في حانات المدينة. لقد كنت أبكي في ضحكي، وأموت في ابتسامتي الشاحبة كل ثانية، ولطالما فكرت في الموت حقًا... لأنني مللت هذا البذخ الذي يشعرني بالعجز.

وكم فقدت عقلي في حكايتي التي لا تنتهي، وألحاني المتبقية من شذرات نفسي لا تعرف سبيلًا للنجاة. أغني وأندب سوء طالعي الذي

رماني في حضرة الترف والبذخ اللانهائي. يا ترى كيف طعم الحياة في معزل عن ناظري؟ أوليست الحياة نايا يتوسل ألحانا غائبة في الكمان؟ كل الخواطر والهواجس كانت تطاردني في معزل عن يافع وباقي الأصدقاء، هناك مساحة تقسم فيها جراحي وأحزاني كل ليل وعوالم من المنزلقات والمخاطر تفتك بصفائي الكئيب، كيف تسمح لهذا المستنقع أن يسري ويتغلغل في كيانك؟ هذه هي الحقائق التي كانت تظهر من حين لآخر، وكنت أجلدها بسياط من حديد، لأني لست بحاجة إلى مثل هذه الأفكار التي تبحث عن كيان خائف من اللاشيء، وعلى هذا النحو كانت تنازعي نفسي. بعد أن استمتع بعضنا ببعض، أخذت يافعا وقررنا أن نصطحب معنا بقايا الممنوعات المتطايرة في الشقة حتى تحلو ليلتنا. انظر يا صديقي، هذه الطرق مكتظة بهذه الأنواع، لا أعلم كيف تسمح لهم السلطات بهذه الممارسات غير المسؤولة؟ قل لي كيف ينتهي مسلسل هؤلاء الأوغاد؟ لم أعد أحتمل النظر في وجوههم المليئة حزنا وبكاء؟

يقول يافع: سنذهب إلى المسبح كي ننسى هذا الوجود ونستيقظ من جديد. تنتظرنا حفلة الليلة.

– إنها ليست كباقي حفلاتك، إنها تتعلق بتقاعد أمي وأبي، وبحضور شخصيات وازنة. لا شك أنني سأظفر الليلة بأرواح منكسرة تعزف الحنين إلى شجونها اليتيمة.

بعد ساعة ونصف من حرب الطرقات وصلنا إلى المسبح. توجهنا إلى غرفة الملابس ثم نحو المدرب، ودخلنا الماء دون إذنه، فنحن لا نأخذ إذنا من أحد، بل نفعل ما يحلو لنا متى نشاء. ورهاننا واحد هذه الليلة لا حاجة لنا بتوجيهات هذا الأخير. لا نريد سوى الاستيقاظ ما استطعنا.

استغرب الجمع منا لكونهم لا يعلمون من نكون. أرادوا أن ينقضُّوا علينا كجراد منتشر، وأعينهم تخبئ كمًّا هائلاً من الحقد والغل. كنت صائبا حين وصفتهم بالبؤساء، والحال يؤكد أنهم ينحدرون من تلك الأحياء الهامشية التي تقع خلف جدار العار..

وبينما مواكب السيارات تتوالى والشخصيات الوازنة تتأرجح يمينا وشمالًا في زقاق الرياض، ما أزال أنتظر من يرفع ستار حزني العميق ويعلن انطلاق فصول مسرحيتي المبهمة. إنني لا أطيق الانتظار.

– هلا أخبرتني عن طريقة أصل بها حاضري البئيس بماضيَّ التليد؟ وكيف أنفض عن كياني غبار الترف الماكر وقناع الفرح المزين بالألم؟

– ألهذا الحد –نحن الأغنياء الأموات– لا نشعر بأخينا الإنسان؟ وكيف وصل بنا الحال إلى هذه الكارثة الإنسانية؟

إن قلوبنا كالحجارة بل أشد قسوة، أفليس من الحجارة ما يشقق فيخرج منه الماء؟ أوليس منها ما يغيث المستغيث الحيران والضال الذي فقد سراجه الوضاء؟

– فلتصمت، لا شك أن نوبة الخواطر قد أصابتك من جديد. احتفظ بهذه الهلوسة لحين آخر، ثم ودع أراجيزك الغابرة التي لا تطيق انتظارا حتى تنفجر في ظروف غير محسوبة. اعقلها يا رجل، فالوقت ليس وقت المشاعر والأحاسيس.

رغم حياة البذخ التي أتلذذ فيها صباحا ومساء، وواقع الترف الفاحش الذي لم أعان في سبيل الحصول عليه، كنت أشعر بضيق يخنق أنفاسي ويصيبني بالجنون أحيانا. لا طعم للحياة من دون عناء، فما قيمة الغنى في غياب الفقر؟ لا بد من أن أشعر حقًا بحاجاتي لأشياء تدفعني للعمل كي أنالها. مللت الجاهز والموجود، وكفرت بهذا الوضع المزري

الذي أتحاشى الخوض فيه أمام الملأ. أنا لست لي، ففي جميع الحالات ميت عند آخر ليلتي التي يختنق فيها كياني وتتبدد كبريائي المزيفة.

لا جدوى من إخفاء حقيقة كون هذا الأخير يختزل في أعماق أعماقه طنًّا من الأحاسيس والمشاعر الإنسانية، التي تسع الدنيا بأسرها، لكنه يحجبها بكبرياء نفسه المهترئة وطقوس العائلة وأعرافها. لا طاقة لي في حضرة هذه المشاعر العذبة، لا نجوى إلا معها، أخطب ودها، وأتمنى لو يظهر معدني النفيس في يوم من الأيام من دون أن أرتدي أي قناع.

أتذكر اليوم الذي جاءت فيه «رقية»، تلك اللحظة التي وطأت عيني ملح عينيها الساحرتين، تناجيت معهما طويلًا، وأبصرت النور الذي اقتلعني من دنيا الكابوس التي أتخبط فيها. كان الجو ممطرا والمنازل من حولنا دول وشعب مختلفة، لا تقدم أو تؤخر بين يدي الإحسان والتفقد ساعة.

عندما رأيت هذا الحرم متجليا أمامي آمنت به قبل أن يتكلم. أحسست أنني رأيت نجمها يوما ما في سمائي، ربما في رؤياي، ربما رسمت لحظها في كياني دون أن أشعر. من أين أتيت؟ وكيف عصفت دون مبالاة؟

ما تزال عيناي في عينيها ولم تبرح مكانهما، أتأمل جمالها وحسنها باقتضاب، ولكن هل حقًا سأحظى بنفس من ترياقها المعتق؟ يا إلهي، أنا تائه في سمائها، وأجهل حسها وسكنها. لا بد أن تكن لي يوما مثل هذا الشعور، وستفصح لي عن حقيقة مشاعرها عاجلًا أو آجلًا.

قد ينعتني أحد ما وهو يراني في تلك اللحظة بالأحمق المعتوه الذي ذهب ضحية قلبه وراح عقله خلف السراب. سيقولون ويؤولون ويؤلفون الخرافات من أجل الإطاحة بكيانك الذي سيهتز صدقًا في يوم من الأيام، ولن يدعوك تنعم بسلام اللحظة التي من المفترض أن تغير شيئا فيك.

أقبلت أمي إلى بهو الفيلا ومعها رقية التي تمشي على استحياء قبل أن أقف كي أقبّل رأس والدتي. فحمدًا لله أن أتانا بهذه الجوهرة العابرة.

– من تكون هذه البنت يا أمي؟

– إنها الخادمة الجديدة يا ولدي. أنت تعلم أنه لا طاقة لي على عمل البيت، كما أن صحتي تدهورت مؤخرا.

– أصدقك القول أمي، لم أر مثل هذا الجمال.

– مللت مكرهن وخداعهن يا ولدي، كل ما في الأمر أن إحدى صديقاتي أخبرتني أنها تعرف بعض الخادمات اللواتي يتمتعن بصفاء السريرة ونقاء القلب وصدق المواقف لترشدني إلى رقية.

– إنك يا أمي قد أحسنت إلى ولدك من حيث لا تدري.

– ماذا تقول؟

– لا شيء أمي... مرحبا برقَيَّةَ الجميلة.

تبسمت رقية وطأطأت رأسها خجلًا، وقد نبت في خدها بقية من فصل الربيع وأنشودة السياب. هذا الحياء يأسرني ويضيع عقلي يا أمي في ملكوتها. هنا انتبهت أمي جيدًا للكلام الذي أحدث به نفسي.

– اصمت، واذهب إلى غرفتك قبل أن ينالك ضربي المبرح. أظن أن فكك السفلي يحتاج لتقويم آخر بهذه اليد كي تحيد عن هذا الكلام. لن أخفي خوفي وهلعي من قبطان الفيلا (أمي) قمر الأسرة الذي يطلع كل مساء من نوافذ كلماتنا الجافة.

– حسنًا أمي، لا تؤاخذيني بما أقول، لكن الجوهرة نادرة، والمشتري على أتم الاستعداد، ولكن ما اسمها؟

– ألم أقل إن اسمها رقية، انصرف عن وجهنا الآن.

إنها رقية، ترتقي في حضرة كل منزل تزوره وتترك آثار الود والمحبة، وتنشر بذور الصدق والإخلاص في أرجاء الدنيا.

اسمي رقية، تنحدر أصولي من ضواحي مدينة فاس، سليلة أسرة فقيرة من دون أب. تحملت مسؤولية رعاية أمها وإخوتها الصغار بعد وفاة والدها في حادثة سير، لتتخلى عن دراستها في كلية الآداب والعلوم الإنسانية المولى إسماعيل، شعبة علم الاجتماع في فصلها الثاني.

تخطفها الفقر من حيث لا تدري، لينتهي بها المطاف على أعتاب المنازل تخطب ود بعض الأعمال، لعلها توفر لأمها بعض حاجاتها الأساسية.

توجهت رقية إلى حيث توجهن الخادمات اللواتي سبقنها، واقترحت عليها أمي أن تغير ملابسها وترتدي ملابس العمل ليتناسب مع شموخ مقامها في المطبخ!! الناس هنا لا ينتظرون حتى يرون رقية (البهية الخضراء) التي تسحر الناظرين وهي تمضي إلى غرفتها. تتبَّعتَ أثرها وخطوت بنفس أسد شجاع يلهث خلف لبوأته التي تحمي عرينه المفقود وتؤازره كي يلتئم جرحه الغائر منذ خمس سنوات خلت. أحسست

عندها بطعم الثلج الذي بعث قلبي من جديد. أمشي بخطوات متثاقلة وفي يدي بقية من ورد الياسمين الذي يشبه ذاكرة جرحي الجميل، أتغنى بوردة المستحيل التي ظهرت أمامي في لمحة بصر.

اختفت رقية لساعتين تقريبا ولم تخرج من غرفتها. ظللت أنتظر شروقها بعد الأفول والزوال، لكنها غابت ولو بعد حين. في نفس الوقت تبحث أمي عن دليل يقودها للحكم على سلامي وصدقي الذي يشعر خادمتنا بالأمن والاطمئنان في غيابها، ما تزال تحمل في يديها بقايا من أغصان النخل الطويلة التي جلبتها من الحديقة الأمامية للفيلا لتجلدني بها إن أنا فكرت يوما في الخلو بها وحدنا، أو السماح لشيطاني الأخرس بغوايتي لحظة انشغالها، فما كان إلا عن قليل حتى أيقنت أنني قد شغفت حبًّا بها، ولم تكن لتنطلي عليَّ حيلة أمي. توجهت مسرعا نحو غرفتي مرتجف الفؤاد واليدين ومصدوما من أثر هذا الحرم الذي زعزع كياني بلا رحمة.

خفقات قلبي في ارتفاع، النبضات مختلفة ألوانها هنا، ووجهي قد امتلأ دما يتوسطه لون برتقالي وأصفر فاقع يثير غضب الناظرين إليَّ.

تطرق أمي الباب تظنني نائما أو غارقًا في عوالمي السبعة (الحاسوب، المجموعات الافتراضية، البيانو، الرسم، الكتب والمجلات

الأسبوعية والشهرية والقيثارة) لم تكن تعلم أنني غارق في لؤلؤتين نادرتين، لم تكن تدري أن ابنها قد سقط مغشيًّا عليه حين رأى قمرا قد تجلى أمام ناظريه، لا تفقه شيئا في أقفال قلبي التي انفتحت بعد أن تبسم الزمان من ثغرها، وبعد أن تناثرت أنفاسي بمجرد رؤية شعرها الذي تجاوز ركبتيها.

يا أمي، عن أي شيء تبحثين؟ هل تبحثين عن فؤادي؟ فقد ذهب الفؤاد كما تلحظين، إن كنت تبحثين عني فأنا لست هنا فانظري ماذا تأمرين، إن كنت تطاردينني كي أكف عن ولعي وشغفي برقية، فلن تظفري إلا بسرابي وطيفي الذي عانق طيف رقية في منامي.

بالأمس حيث كنت مرميا على هامش الطريق طريح الفراش من أثر المرض، عندما تجرعت الخراب بكأس كان مزاجها زقوما، وقتلت في اليوم ألف مرة. كم تمنيت أن أهوى نفسي لثانية أو جزء من المئة، فلم أجد إلا الأطلال وعروشًا خاوية من أهلها، وأشجارا تهوي إلى مكان سحيق.

بالأمس يا والدتي كنت شاهدة على ذاكرة ابنك الغالي، ابنك الذي ترقصين معه على أنغام "راحلة" و"لمن تغني يا قلبي" لأمير وسلطان الأغنية المغربية محمد لحياني. ابنك الذي غنى للوجود لحنا

خائفًا من أجل البقاء، وعزف في حضنك أنشودة الحياة. الذي أنار الدرب لهذا وذاك، وقضى من عمر العطاء أشواطًا في سبيل الغثاء.

لم أظفر يا حبيبتي إلا بالخيبة والنكسات، كان الله شهيدًا عليَّ، ثم أنت وسائر إخوتي. أرأيت كيف رماني الموج على قدمي؟ وكيف مشت الأحزان وسارت إلى قلبي؟ إنك تشهدين يا غاليتي على أملك الذي تحول إلى غصة وألم من دون أن تعلمي مصدر الأذى الذي أحاط بي. ملاكك وحارسك الأمين قد ذُبح أمامك وأنت تبصرين سقوطي وحدك أمي. ألم تكن أغصان هذه الأشجار شاهدة على طموحي وخططي التي نسجتها بدموع فرحتك يوم تخرجي؟ ألم تقولي أن العود محمي بزمرته، ضعيف إذا انفرد؟! وعلى دربك قد مضيت، وبسراجك أنرت الدرب بعدما أحاط بي الموت من كل جانب. يا أمي، كيف تخطفني الموت لسنتين كالطائر المذبوح ولم أحرك ساكنًا أمام مصيري المحتوم؟ أين كان وعيي وعقلي؟ ولماذا انفصلت عن واقعي وتوقف الزمن عندي؟ كم غزلنا الأشواق معا بحبنا؟ وكم سهرنا وحلمنا؟ وكم حجبت الحر عني يوم فتكت بي نفسي وفقدت شراع سفينتي؟ أتراني أخذلك أو أتخلى عنك أو أرميك بعد كل معاناتك في سبيل شفائي في دار المسنين كالذي استهوته الشياطين؟ كل الذي وقع في حضرتك أمي علمني معنى بلاد العرب أوطاني، وكل العرب إخواني، لكنهم على جثتي خانوا وطني

واستهانوا بكرامتي بعدما أشعلت بأناملي دروب حياتهم. لقد باعوا تاريخ حضارتهم مقابل الجاه، وتنكروا لي ولك وقذفونا معا. إنهم كتبوا حتفهم بأيديهم ونسجوا أكفانهم بإبرهم، وبلغت أرواحهم التراقي بسوء مكرهم، فماذا تنتظرين مني يا أمي؟

لقد خاب أملي وأحرقت الدماء التي تسبح مفهوم الثقة والأمان، وامتطيت جوادي كي أصل الحاضر بالماضي، فغدروا بي وقتلوني ووزعوا لحمي بين الناس ينعون به ذاكرتي. أتراني أتراجع يا أمي بعد هذا الشغف الذي نبت في وجداني بعد رؤية هذا الملاك؟ هذا جسدي قطعيه إربا أو اقذفيه من جبل، إنني لن أتوانى لثانية عن الحفاظ عليها.

تتوالى خطواتها السريعة، تظنني في المطبخ أو أسترق النظر في محراب الجمال.

إنها قاتلتي التي ترقص حافية القدمين في مدخل شرياني، لا أدري كيف مشيت إليَّ وكيف مشيت إليك. لن أبرح مكاني حتى أظفر بقلبها أمي.

ماذا تريدين يا سيدة الدنيا، هل أنت على صواب في ادعاءاتك؟ هوني عليك، لن أخون ولن أكون إلا كما تريدينني. رقية هي قرة عيني

التي انتظرتها طويلاً، وقمري الذي أضاء ظلمتي، كيف يقبل على ساحة الغدر من في قلبه حب لو وزع على أهل البلاد لكفاهم؟ إنني لن أغدر أو أحفر خندق الحقد والأذى بيدي، إن المحب لمن يحب مطيع. لا عليك أمي، فأنت كما ترين أشغالي كثيرة لا تنتهي، ولا وقت لدي كي أفكر بخادمة، عليك أن تطمئني ولا تخافي.

هكذا كان جوابي بعد أن استطردت في أسئلتها الحاسمة. وزعت صكوك الإجابة هنا وهناك، ثم أحكمت قبضتي على الأشياء حتى لا تكشف سري. إنني أظن أنها قد لاحظت ذلك، لكنها استأثرت به كي لا تحرجني.

يا بني، إن رقية الحوراء والحسناء جميلة القوام هاته، تأخذ اللب من أول لقاء.

– لقد قلت ذلك وحدك ولم يرغمك أحد، هل تسمحين بقبلة على جبينك المرصع بالجمال... إنها تأخذ اللب، ما معنى هذا الكلام؟

– لا تتحامل عليَّ أيها الساذج، أنت تعلم ما أرمي إليه... لا تستهن بعجوز أقبلت على التقاعد وأوشكت على الرحيل.

لك أن تتخيل حجم المعاناة والصدمة النفسية التي خلفتها هذه العبارة، ولو كان باستطاعتي حذف مفردة من قواميس اللغة لاخترت كلمة الرحيل.

راء الركود بعد الحركة والنشاط، وراء الحنين إلى الأطلال بعد الأعمار. راء الرفات الحزين والذكريات المتروكة التي نسلي بها الأنفس بعد الفناء. حاء الحيرة والحرية والحقيقة والحضن الذي لن يأتي إذ ولى من دون عناء. ياء اليمين المقدس والعهد المطرز بالأشواق الذي استهله الجميع بالغياب دون البقاء، ولام اللوم واللظى الممتزج بالولع والأسى، وصور الأحباب بعد رحيلهم تعرج إلى السماء.

هذه الدنيا التي نبكي فيها مقبلين ومغادرين بلا سبب، هل تستحق كل هذا العناء؟

تحركت عاطفتي من جديد ووقعت جاثيا على قدمي والدتي أحتمي بهما ولسان حالي: لا تكرري هذه الكلمة أماه.

في الحقيقة لقد حيرني هذا الغني المتناقض، تارة يتجبر، وتارة يبكي، ومرة يطغى إذا صادف حثالة بجوار الفيلا، حيث ينظر للآخرين نظرة ازدراء واحتقار... يبدو للوهلة الأولى أقل من أن يكون شخصا أو

نصًّا، لكن نرجسية الأغنياء تسكن أعماقه وتحجب عنه شمس المساواة البشرية. لقد أتى قدري من حيث لم أدرِ، ولئن كان بالأمس على هذه الأرض ما يستحق الحياة، فالآن قد وجبت عليَّ الحياة.

– معنى هذا الكلام يا ولدي ألا تراقب رقية في خلوتها حتى لا تشعر بالضجر والحرج، فلا تمارس الوصاية عليها، دعها وشأنها تتمتع بحريتها المطلقة في غيابنا، يكفيها أتعاب المنزل وقسوته، فلا تكن أنت والزمان عليها.

لقد أرهقها تعب السفر وهي نائمة الآن، لا أريد أي حركة... دعها تنام في سلام، ليس هذا وقت المحاسبة، إنه أول لقاء.

– تيقني من ذلك أمي، فهذا يوم إجازتي الأسبوعية، يمكنك الذهاب مطمئنة إلى الوزارة معتمدة عليَّ. قبلتني بعدما كادت تفتك بي بواسطة سعاف النخل التي تحملها. كنت أتخيل حجم المعاناة التي سأتلذذ بها بعد أن أرى ظهري وصدري مطبوعين بهذه الأشواك المتناثرة هنا وهناك. الحمد لله لم تقع تلك الافتراضات، توجهت مسرعا نحو غرفتي حيث أنتظر بفارغ الصبر موعد استيقاظ رقية كي ترق لي وأراها من حاضري البعيد.

أغلقت الغرفة ورفعت سماعة الهاتف كي أفاتح يافعا في الموضوع، ولأخبره بحقيقة ما جرى والحالة التي أشعر بها. لقد امتلكني شغف لو وزع على أهل المدينة لكفاهم، ذلك الولع بالحبيب من أول نظرة، حتى سلاطين الحب أمثالي لم ولن يروا مثل هذه اللؤلؤة الغابرة.

لم أنتظر برهة حتى خرجت والدتي، سمعت بواب الفيلا ينادي بأعلى صوت: يا مدام، اليوم موعد سيارة الفيراري.

أيقنت أنها في الطريق إلى مقر الوزارة. عم السكون واستلقيت على ظهري فرحا مزهوًّا ومنتشيا بانتصار جديد. سأشارك يافعا هذا الحدث... فما هي إلا دقائق حتى اتصل ورن هاتفي، يافع على الخط.

– يا للصدفة، كدت أتصل بك الآن، ما الذي جرى يا تُرى؟ أهلًا صديقي كيف حالك؟ افتقدت صوتك ليوم بأكمله، ألهذا الحد يطيب لك العيش من دون سذاجتي؟ ماذا أصابك يا رجل ألا تتحدث؟

– أعرفك بنفسي لأنني أعلم أنك مجرد لحن خائف، وتر في الكمان. أنا طيف الخيال الذي يتفقد برفقتك جميع حانات المدينة وأسواق الحشيش كل ليلة، هل تذكرني الآن؟

أجبرني على الضحك كعادته، ثم توجهت نحو نافذتي مزيحا الستار عن زجاجها، وأبصرت السماء، ما تزال خالية من النجوم كي أنطلق في صباحها. استيقظت رقية على وقع ضحكتي، وناديت يافعا بصوت خافت: أريد لقاءك هذه الليلة.

اختر لنا من الحانات ما ترى، وأعلن سهرتنا هذه الليلة إلى حدود الفجر، نريد خمرا معتقًا، وحشيشًا يكفي عقولنا، وآلة السفر عبر الزمن السبسي ليحلو الطرب. لا أريد فتاة هذه الليلة، دعهن وشأنهن، أريدك أنت فقط يا صديقي.

– ما الذي أصابك؟ يُخيَّل إليَّ أن أمورا قد وقعت من دون أن أعلم، على غير عادتك الليلة.

– عليك أن تتعلم أن الاستثناء لا بد منه، فلا تجادلني. لا قمار بعد اليوم ولا فتيات، هل هذا واضح؟

– نعم أخي، نلتقي في التاسعة ليلًا في حانة "المجد" قرب مقر جريدة الحمقى أمام فيلا جميلة الواد.

– جميلة الواد يا يافع، بالقرب من أميرتك التي لا تهام؟

– اللعنة عليك أيها الأحمق، إلى اللقاء.

تبادلنا شتى أنواع الشتائم والهجاء، ومن دون أن أشعر آذيت أخي. لقد أحييت ذاكرة أشجاره المتساقطة. جميلة الواد شابة في الخامسة والعشرين من عمرها، جعلت من يافع حجرا أصم. كل من يقترب منه يجده روحا مليئة بالندوب والانكسار قد تجسدت في شكل صخر بعد أن رفضت الزواج به.

وضعت سماعة الهاتف فوق السرير وتوجهت نحو المطبخ. المؤكد أن رقية بعد أن تستيقظ ستباشر عملها في مملكتها دون شفقة أو رحمة. هكذا هن النساء، سلاحهن العطاء، ووجودهن جمال، وجوهرهن عاطفة وكلام وخيال. إن اللافت للنظر أنني لم أر امرأة فاتنة مثلها. عصيت أمر والدتي فدفعني ضعفي إلى تتبع أثرها واستنشاق عطرها الذي ملأ الفيلا روحا وريحانا، وكلي أمل في أن أحظى بودها.

أنزل متنكرا من غرفتي مرتديا جلباب والدي، فإذا بغاليتي ترقص حافية القدمين، وشعرها كالطل يغيث الأرض القاحلة. بستان يستظل فيه كل تائه أشرف عقله على الهذيان. حالي مثل العيس في البيداء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول. لم أكن أتخيل أنني سأعشق هذه الدرة النادرة. يا أمي، كيف أكف عنها وخدها صفحة من تاريخ

الطبري، وكفها مقدمة البحتري، وعاتقها سيرة بني هلال. كالموج في جزره والطفل الذي يمد يديه للحرية والانطلاق.

يا إلهي! ماذا أصابني؟ قد تحولت إلى شاعر ولا أبالي.

كل هذا وأنا لم أتجاوز بعد الدرج الرابع فقط. ماذا إن فتحت الباب قد يغشى عليَّ! لا أحتمل أن أرى ما لا يحق لي الآن. علمت أن سهام "الهو" قد تحركت، ولم أشعر بوصية أمي الذابلة، وهذا أوان الاستجابة لحرم الجمال.

تغني وترقص من دون أن تبالي بمن يوجد وراء هذه الغرفة. فتحت الباب على مصراعيه. أأنت رقية الخادمة الجديدة لعائلة الريحاني؟ هرولت نحو سرداب المطبخ الصغير تبتغي لحافًا ترتديه. شعرت أنني هتكت خلوتها ولا يصح لي ذلك. تراجعت قليلًا إلى الوراء، عذرا سيدتي إن أتيت في وقت لا يحق لي وأفسدت عليك نشوة رقصك هذه. ما تزال تختفي في سرداب المطبخ وتريد أن تطمئن إليَّ أولًا. نزعت جلباب أبي ووضعته فوق الباب حتى ترتديه لتطمئن. خرجت حتى ترتدي الجلباب، وبعدها طلبت الإذن بالدخول. هل تسمحين؟

– نعم تفضل يمكنك الدخول، تذكرت بيت المتنبي حين قال: ما التأنيث في اسم الشمس عيب... وما التذكير فخر للهلال.

– ابتعد قليلًا إذا أردت أن نتحدث.

– حاضر. لا تخافي مني لن أجرؤ على إيذائك.

– لست خائفة، أريدك فقط أن تتراجع ثلاثة أمتار إلى الخلف.

– على الرحب والسعة، سأنصرف الآن.

تباشر رقية عملها في مملكتها بلا رحمة. إنها حقًا استثناء في كل شيء، فلم تقع عيني على فتاة فاتنة مثلها، تقدمت خطوة إلى الأمام وتراجعت خطوتين وراء. علمت أنني عصيت والدتي ثم انطلقت نحو غرفتي من دون أن أعود إلى ساحتها.

قامت تظللني من الشمس*** نفس أحب إليَّ من نفسي

قامت تظللني ومن عجب *** شمس تظللني من الشمس

رمقتها من بعيد، يبدو على محياها شفق الصبح إذا أثمر. أهذا الحد يبدو العاشقون. من حبة الدر تلك، يقول يافع.

– إنها رقية التي حدثتك عنها.

– عليك أن تشكر الله عليها، الآن يتضح لي لماذا كانت تلك الليلة هي آخر عهد لك بالحانات والقمار.

ما هذه السيارات التي تحيط بالمنزل؟ الشارع مكتظ عن آخره، لقد أوشك الحفل على الانطلاق.

كنت ويافع مستلقيين بالجانب الغربي فوق سطح للفيلا، وكل من هب ودب من الزوار تبصره أعيننا من بعيد. لقد استعنَّا بآلة تقريب الصور عن بعد حتى نتمكن من مطالعة جميع الوجوه المقبلة على التمثيل في هذا الحفل. سرحت قليلًا أنظر في السماء، النجوم كثيرة هذه الليلة والسماء ضاحكة مستبشرة أتظنها تشارك والديَّ فرحة تقاعدهما؟ أتراها ممتنة لسنوات الجد والعمل المخلص؟ ابتسامة تظهر لي من سحابة راكدة لا تتحرك، في حين ظل يافع يرمق الذي يأتي ولا يأتي، تذكرت طيف رقية، وأنفاسها العذبة، وثغرها الذي يشبه سيوف العرب، وأعلنت متاهتي في تفاصيل سمتها الآسر. لقد كانت والدتي محقة حينما أوصتني خيرا بها. هي الآن قد استوطنت عقلي وكياني وجميع أنفاسي، تسبح روحها كعشق صوفي لزاويته، ولكن ماذا أفعل بزينب التي دخلت الآن؟

هي الأخرى فائقة الجمال، هل أقترب منها لأعلن خيانتي الأولى لسفيرة روحي رقية، أم أتبع خطوات شيطاني اللعين؟ دقائق من الشد والجذب بين عقلي وروحي انتهت بلكمة عنيفة من يافع أرسلها على خدي لتوقظني من غياهب خواطري المستحيلة.

– انظر من الآتي!

وأنا أبحث عن خدي المفقود من أثر الضربة محاولًا التأكد من بقاء فكي الأيمن، لاحظت موكبا جديدًا على أعتاب المنزل.

قال يافع: هكذا إذًا، لقد ابتدأت للتو أيها المعتوه.

– ما الذي تقول؟ من الشخص الذي يحمل الحقيبة الرمادية ويمشي بسرعة كبيرة.

– لا يبدو شكله غريبا، شخصية مألوفة في عدسات الإعلام، لكن اسمه لا أستحضره الآن.

نزل هذا الشخص من سيارة سوداء مرتديا بذلة سوداء من دون حرس، ثم توجه مباشرة إلى بهو الفيلا حيث بقية الرفاق.

أخبرني أنه سيبحث عن وسيلة لعلها تقوده إلى معرفة سبب اختفاء هذه السيارات، اتخذ شارع المقاومة وانحدر من جانبه الأيمن المطل على حينا، ثم استلقيت على ظهري محاولًا استرجاع شريط ذكريات الطفولة وألوان الربيع الأولى التي شربت عبقها منذ أزيد من عقدين ونصف. كنت أجتنب الخوض في هذه المعركة التي لا علم لي بتفاصيلها ومواقفها إلا ما ترسخ في ذاكرتي من سهر وسمر ومغامرات وسفريات داخل وخارج الوطن، اعتقدت أن ثمة العديد من الأسرار تقع خلف حجاب الطفولة هذا، هل حقًا أنا ابن هذه العائلة؟ ألا يمكن أن أكون وغدًا من هؤلاء الذين ألعنهم كل ليلة وأصفهم بشتى أنواع الشتم والقذف؟ ما هذا الذي أقول؟ لماذا انفجرت ذاكرة الجرح الجميل؟ كيف تتسلل الأحزان إلينا ساعة الفرح؟ لقد أقبلت على الجنون بملء الوجود، ومن حيث لا أبالي فقدت جزئي وكلي. كيف لي أن أشك في والديَّ ومرجعيتي. أهذا جزاء إحسانهما مذ وطئت قدماي الثرى؟ ماذا لو أفصحت عن هذه الخواطر أو كشفت الذي يدور بخلدي ونفسي؟ لتسببت إذًا في انهيار هذين الشخصين الطاعنين في السن، اللذين لم أجد منهما سوى الحب كل ثانية.

يا إلهي ارحمني وخلصني من هذه الوساوس التي نغصت حياتي لعقد من دون أن أفصح عنها لأحد سواك. لا أحد يعلمها بعدك ما عدا

يافعا. ما أتعسني من كيان منشطر! لماذا يحاصرني الكون بهذا الشكل الليلة؟ شيء عجيب أن يصدق المرء وساوسه الشيطانية وأفكاره التي تتنافى مع الإيجابية والمنطق، ومن مدعاة العلل الشتات والانزلاق في متاهات لا تعد ولا تُحصى. في قرارة نفسي كنت متيقنا من أن جل الوساوس كاذبة وباطلة ومعصية كبيرة إن صدقها المرء، هنا استحضرت شريط وسوسة إبليس لآدم النبي عليه الصلاة والسلام، كيف أوهمه بشجرة الخلد والملك الذي لا يبلى. ما إن صدق ذلك حتى بدت له سوأته وطفق يخصف عليه من ورق الجنة. إذا أردت أن تدخل سجنا أبديًّا من دون سراح أو حرية، ليس لك إلا أن تسلم الوثاق وأن تصدق شيطانك الذي يقذف ألسنة من الجحيم الفكري الممتزج بالأوهام. تذكرت للتو بعض الجبناء الذين منحتهم عمري وروحي لأظفر في نهاية الحلم بعهد صداقتهم، لكنهم استغلوا كما استغل غيرهم فحش غناي. أنا الذي كنت أبحث فيهم عن صورتي الفانية، وهم الذين بحثوا عن أرقام حساباتي البنكية، وشركاتي وممتلكاتي، كنت أناشد عهد الأصدقاء لعلي أعثر فيهم على مرآة أرى فيها نفسي وكياني... هكذا طبائع الخونة، يتطلعون إلى ما عندك، فإن أحكموا قبضتهم عليك واطمأنوا إليك، جعلوك صريع حب أو صداقة كاذبة ليولوا مدبرين مخلّفين وراءهم خزيا وعارا يلحقهم أبد الدهر. والحق أقول لم أكن نادما على كل من صادفته

يوما في حياتي ودخلها من دون سابق إنذار أو إشعار. لا أعلم كيف يحصل ذلك؟ هل طيبتي سبب انسلالهم إلى عوالمي أم يعشقون قسوة لا أجيد إتقانها إطلاقًا؟ ما شكل رقية هذه الليلة؟ أين هي يا ترى؟ لقد اشتقت إلى سماع صوتها ورؤية لحظها وثغرها.

– ألست تريد الفوز بإحدى بنات بعض الوزراء؟ ما رأيك في هذه التي تدعى زينب؟

– قلت لك إنني لن أعشق إلا رقية، وهؤلاء النسوة اللاتي أبدو متطلعا إليهن الليلة ليس إلا بهدف المصلحة، هل فهمت ذلك أيها الشيطان اللعين؟

أخيرا ظهر يافع وبحوزته العديد من الورود الحمراء. توحي النظرة الأولية أن أخي قد تعرض لنوبة غزلية أثناء بحثه عن السيارات. لكن ليس بالشيء الذي توقعت، وإني لأعلم كيف يستوطن الحب قلب يافع، ما الذي جرى؟؟

لقد استلقى هو الآخر في منتصف الشارع وأطلق عنانه لأنجم السماء باحثا عن حلمه. هل عادت إليه بعد سنوات من الجفاء

والصدود والامتناع؟ هكذا اعتقدت للوهلة الأولى، أسرعت باتجاه الشارع لأجده مطروحا أرضا، قد دخل في نوبة بكاء هستيرية.

ما هذا التناقض؟ ماذا بعد الضحك إلا البكاء؟ ماذا بعد الأمن إلا الجفاء؟ ماذا بعد الصدق والعطاء سوى الخذلان والفناء؟ يا لسوء طالعنا! فكلانا تفتقت ذاكرتنا عن جراحنا الليلة، الأول مع وساوسه وصراعه النفسي، والآخر مع عشقه الأحادي "جميلة الواد"، فيا ليتها كانت حقًا بجمال اسمها!

– ألم تحضر مع ذلك الشخص فتاة تنسينا جميلة الواد لسويعات؟

لقد اغتالت حلمه منذ زمن بعيد، تأملت وجه صديقي وهو يتلفظ بهذه الكلمات التي تشبه السهم الكاسر، علامات الحيرة والهذيان تبدو على محياه، فبمجرد أن يسترجع شريط ذكرياته رفقة حبيبته السابقة يلعن أيامه والتاريخ الذي قاده إلى جرحه الجميل، تدخلت حينها:

– أما زلت تتذكرها حتى الآن رغم سبع سنوات من الابتعاد والافتراق؟

نظرت أقصى يمينه فإذا به يدير الوجه عني وعبراته تنهمر على خده. لم أكن أعلم أن أخي يافعا مرهف المشاعر إلى هذا الحد. ولكن هل تعلم ما معنى أن يبكي الرجل يا أخي؟

– معناه أنه عاش الصدق، إن لم يكن الصدق نفسه. مبارك عليك *يافع* لقد كنت محبًّا صادقًا طاهرا، لكنها باعتك، هل تشتري من باعك بثمن بخس دراهم معدودات؟

– لا عاش من حاول أن يمن عليَّ بعاطفة ملقاة تحت أرض الكرامة. انظر هذه سماؤنا قد التحفت أحزاننا الليلة بأمر قد قُدر. لن أخفي عنك شيئا إن قلت لك إنني أكرهها.

– ماذا تقول؟ هي التي لم تقف عن توجيه الطعنات القاتلة، وأنت الذي لم تتراجع عن حبك. أتعني أنك ما زلت تعشقها كما لو كنت قبل سبع سنوات.

– نعم، للأسف لم أتخلص من ذكراها بعد هذه هي الحقيقة.

سأكذبك القول إن عصيت مشاعري وكتمتها، لكنني صدقًا ما أزال أعشقها وما تزال تسكن وطني، ورؤيتها من بعيد تذهب بؤسي وتكف جنوني وحيرتي. تقبلت أن تكون في عصمة رجل غيري بشق

الأنفس، وتقبلت أنها خانت الحب بحفنة من المال، كنافخ كير ينفض الغبار عن حديده، ومؤمن أنها التي باعت وطنا لا يشترى، لكن ذلك لم يكن وحده سببا لاقتلاع روحها من كياني.

– لقد كنت محقًا حين أخبرتك أنك أنت الصدق نفسه، وانظر هذا يمين الله بيننا، ستأتيك راكعة تطلب العفو والصفح بين يديك، وحينها تكون جميع صلاحيات الحياة قد فوضت إليك. إما أن تضرب فتوجع، وإما أن تعفو عند المقدرة. ذاك الرجل الذي اغترت بماله وقصوره وسياراته سيطرحها عما قريب، سيسترجع وديعته ويلقي بها إلى الشارع. لا تحزن على السراب وامضِ إلى طعنة أخرى بوعي حقيق. كم عدد المعارك التي قصمت ظهورنا وانتزعت قلوبنا لكننا خرجنا منها رجالًا وأبطالًا لا ضرر ولا ضرار؟ كم اشترى كل واحد منا ماء وجهه بيده، واحترقنا بأموال لم نعاني في طلبها لكننا أثبتنا للآخرين أننا أصحاب مواقف؟ إن غدًا لناظره قريب. لقد كانت كلماتي كقطعة الثلج التي أذهبت شرارة روح ملتهبة، وأطفأت غضب صديقي يافع، لتعود بسمته بعد عشرين دقيقة من النحيب والبكاء. عاد إلى مكره وتربصه المعتاد الذي يدفعني إلى الضحك الهستيري.

أخذ وسادتي وفر هاربا يجري فوق السطح كطفل ألفى والدته بعد منفى الغياب. يطلق العنان لنفسه، يشير بيديه إلى السماء قائلاً: يا رب.

سكن الحي قليلاً، واندثرت أصوات السيارات التي وصلت قبل ساعة من الآن، تزايد شكي فناديت يافعا وطلبت منه أن ينزل إلى الحي ويلقي نظرة تفقدية عن تلك السيارات التي اختفت فجأة.

اختفى ظله لأزيد من ساعة ونصف، ولم يكن هذا اتفاقنا. أعتقد أنه توجه إلى بيتها أو اتخذ سبيله في بحر الظلمات من جديد. ساورتني جميع الشكوك والأسئلة، فليس من عادته أن يغيب كل هذه المدة.

سقط يافع مغشيًّا عليه من كثرة النحيب والبكاء، الأحياء أموات، لا طير يهذي أو سماء تغيث المستغيث. أقلبه على جانبيه لعله يتكلم أو يتحرك لكنَّ شيئا لم يقع. ما الذي يمكن أن يراه بريء مثل يافع كي يقذف في البحر من دون رحمة. هل أبصر تلك الروح الخسيسة من جديد؟ هل رأى روح روحه تألف روح غيرها من بعيد؟

هذا شيء مفروغ منه، قد نسجنا خيوط تقبله معا منذ زمن غابر، وانطلقنا نحو عهد جديد. هل أفرط في الشرب قبل بحثه عن السيارات المختفية؟

تأملت وجهه فإذا بكدمات وضربات على وجهه، وبعض الدم ينسكب من رأسه، وعنقه الطويل تزين بالندوب وجرحين غائرين. تيقنت حينها أنه كاد أن يلقى مصرعه لكن الله سلم وخرج ناجيا. لقد تحمل الشيء الكثير قبل أن أصل إليه، يبدو أن حاجته للدم أكثر من أي شيء الآن.... رأس منهمر بالدم وشرخ غائر على مستوى العنق، وصدره كأن شيئا داسه وبقايا الفحم على ثيابه... لقد غادرني إنسانا قبل ساعة وعاد إليَّ جثة هامدة. من ذا الذي اعتدى على أخي؟ ما ذنبه؟ هل يكون بعض الأنجاس الموجودين في الضفة الثانية من البراري ودور الصفيح قد اعتدى عليه؟ يا ليتني نبهته قبل أن يتجه من بحر الظلمات. لا شك أنه قد مر على منزل حبيبته السابقة، فما كان إلا أن بارزه أوباش تلك المنطقة بحفنة من قتال... لقد أعماني حقدي الدفين على هذه المناطق العشوائية، ونسيت بأن كل ذلك مجرد احتمالات لا أساس لها من الصحة إن لم يطلعني صديقي على الحادثة بتفاصيلها.

ما زال يحمل في يديه الورود الحمراء الكثيرة رغم فقدانه الوعي، الورود التي امتزجت بدمائه الطاهرة.

حملته فوق كتفي وجعلت نصفه أمامي والنصف الثاني خلفي. أسرعت نحو العم كامل حارس الفيلا الذي يسهر على أمن وسلامة بيتنا.

– لا تسألني عن أي شيء الآن، أعنِي بقوة كي أضعه فوق السرير ولتبتعد عن وجهي. أنت الذي تستحق أن تتجمل وتفرح الليلة، ونحن الوحوش الغرباء لا حياة لنا إلا ما تبقى من شذرات الجفاء، ألست تراني أحمل صديقي وتحدثني عن الفرق الموسيقية للحفل؟

ارتعدت فرائص الحارس من قولي وأرعبه المنظر. اتجه مسرعًا نحو المدخل الجنوبي للبيت، حيث يتواجد سرداب في معزل عن الجميع، نقصده في حالات الطوارئ والنوازل. هذا السرداب قد جهزه العم كامل بشتى أنواع الأدوية والضمادات وبعض مستلزمات التدخل العلاجي السريع.

– ماذا تقول؟ يا ولدي ماذا أصاب يافعا؟ ما كل هذه الدماء المنهمرة؟

– لا طاقة لي بالكلام، أتوسل إليك يا عمي أن تنقذ يافعا.

أوشكت على الضياع وأعلنت لحن اغترابي، شراعي قد أشرف على الزوال. من خرق سفينتي غصبا؟ من خرقها ليغرق أهلها؟ إنني لن أستطيع مع الذي يجري صبرا.

أتجرع خيبتي وانتكاستي، ألتحف الغربة خلف سور الحزن، وما من رفيق حقيق صادق صدوق صديق كلف نفسه عناء السؤال أو تفقد الغياب. الأمر سيان، أنا الذي راهنت على السراب والهشيم، فكان عاقبتي خسرا.

لا علم لأصحاب الفخامة والسادة الحاضرين لحفلة التقاعد بحالتي. ناولني العم كامل بعض الإبر الطبية ومحلولات تعقيم الجروح وأمرني بالثبات، ربط على قلبي بعدم الخوف وبضرورة الصمود. وضعت رأس صديقي على صدري، الدماء ما تزال تنهمر من رأسه بغزارة.

تقدمت بضعة أقدام ناحية السرداب ثم تراجعت، من هناك؟

طيف أنثوي يقبل أمامنا، رقية تبصر حبيبها ملطخا بدماء صديقه لأول مرة، وهي التي انتبهت لكل ما حدث...

كانت تنتظرني في حفلة اليوم من دون أن تخبرني، أرادت أن تفاجئني، لكن القدر قد فاجأ الجميع بهذه الفاجعة غير المنتظرة. منحتها جميع صلاحيات التدخل السريع لإغاثة يافع، تنبه العم كامل إلى وجود بعض الجروح الغائرة على مستوى الساق اليسرى أسفل الركبة، فقام بتطهيرها، في حين أن رقية تحاول أن تبعث في روحي الأمل من خلال ابتسامتها الساحرة وثباتها.

نزعت قميص يافع لأكشف عن جروح صدره، أحاول في نفس الوقت أن أمنع سيلان الدم من رأسه، لم يسعفني سوى قميصي الذي وضعته أسفل جمجمته، عبراتي تهطل بغزارة، وأنفاسي متقطعة، روحي تكاد تبلغ النزع الأخير، كمن يسترق الصوف من مشط حديدي. أضحى هذا الجميل جثة هامدة أمامي من دون أن أفك لغز الحادثة، لعنت نفسي أمام الجميع وصرخت بأعلى صوت: "أنا الذي قتل أخاه.. لا تتركني أرجوك!

في الجهة الثانية من الفيلا تتصاعد أصوات بعض المسؤولين وضحكاتهم، بينما ضللت الطريق الموصلة إلى الاحتفال بواليديَّ.

لم أشأ أن أخبرهم بما حدث ليافع، قد كان محبوبا عندهما، ويعشقانه عشق ولدهما المجنون الذي راح ضحية وساوسه وأفكاره القاتمة.

ما يزال رفيقي ممددا فوق سرير التمريض يحاول استرجاع ما تبقى من روحه المعلقة بين السماء والأرض. هل يتركني في منتصف الطريق وينتهي مثلما انتهت أحلامي وأيامي، أشواقي وجميع أمري، كل الذي أتى ولم يأت. لا أراك الله بأسا يا أخي، قاوم وأعلن صمودك حتى نستعيد الحق معا.

الجروح غائرة والندوب كثيرة، تتقاطر بين الرأس والصدر والعنق والركبة جميع الأحلام التي رسمناها معا فوق السطح قبل ساعة من الآن. كان يبكي ويفتح ذراعيه ليحضن السماء، لكن الذي حضنه الآن بقايا موت موشك، تخطفته الوحوش في مكان ما من دون أن أرى ذاك، تالله لأكيدنهم أجمعين، ولأُطبقن عليهم هذين المدخلين والمخرجين.

تتصبب رقية عرقًا، مسحت على جبينها بقميصي الملطخ بدمائه. اختلطت أنفاسنا في ساعة العسرة، ما هذا الحب المتفتّق في بقايا حلم كئيب لم تنته كوابيسه بعد.

بعد أربعين دقيقة غرز الإبر فوق صدر يافع وعنقه اتخذت حبيبتي من ركن الواجهة الأمامية لسرداب المنزل مضجعا لها. اصفرَّ وجهها وتغيرت ملامحها من أثر الفاجعة، طلبت مني ألا أفارق صديقي حتى تنهي العملية كاملة.

شربت بضع قطرات من الماء ونامت لدقائق قبل أن تعيد الكرة من جديد. نظفت الجروح والندوب، ووضعت ضمادة تشبه الكفن تغطي صدر يافع وعنقه بالكامل.

استمر العم كامل بتنظيف الجروح الموجودة تحت الركبة اليسرى، طلبت منه رقية أن يحلق شعر يافع حتى تتمكن من تطهير جرح الجمجمة وتضميده.

تبين أن الإصابة على مستوى الرأس ليست بالخطيرة جدًا، ويسهل السيطرة عليها.

سمعت صوتا ينادي: ماء... ماء...

كان الصوت خافتا كصوت آخر الليل ساعة السحر، تحدث واستردَّ وعيه.

– عاد إلينا يافع يا عم كامل، بعث من جديد يا... أردت أن أقول حبيبتي لكنني لم أقدر على التلفظ بها.

أوشكت على الطيران من شدة الفرحة ولم أتمالك نفسي، قبلت يد العم كامل ورأسه، بينما رقية التي فعلت المستحيل بعد تجشمها عناء العملية الليلة، لم أجد الكلمات كي أشكرها على ما قامت به من أجلي وصديقي.

كانت تبكي لبكائي وتحزن لحزني، تضحك لضحكتي، وتعين نفسي على البقاء، وتبعث قوتي حين تسرَّب اليأس إليَّ وأطبق عليَّ الأسى. كنت آمنا في حضرتها ولم أشعر بالغرابة والإدهاش وهي تخيط جرح أخي.

لم تمنحني دافع التصنع والتكلف، مرآتي التي تبدى فيها حاضري ومستقبلي، هكذا كنت أود حبيبتي وأميرتي.

تبعثني من قبري حيًّا مقبلًا على الحياة من جديد، الممتلئة بالأمان حد الثقلين. لمثل هذا تتبعت أثرها لحظة بلحظة يوم جاءت بها والدتي. لم أكن مغفلًا عندما رزقت حبها من دون مقدمات، هي الآن تعيد أنفاسي وأشواقي من جديد... لم أتمالك نفسي هذه المرة، دنوت هذه

المرة واقتربت، همست بعنتريات مجنون: إنني أعشقك عدد الأيام وحبات الرمال.

احمرت وجنتا رقية واستدارت تحتضن حلمها الذي تجلى للتو أمامها، بل يخاطبها ويحدثها بطلاقة وثقة غير معهودة، والحب صار معلنا. لم يخجل هذه المرة من إفشاء حبها وإعلانه أمام العم كامل الذي رق قلبه لهذا المشهد. احتضنهما برحمة وقبلهما داعيا لهما بالبركة والخلود.

هذا الرجل الطاعن في السن لم يطمس لحظة شاعرية ترق فيها الإنسانية أمام قوة الحب، فالناس جميعهم صرعى أمام فرع من فروعه.

الواحد تلو الآخر يرتل أراجيز العشق لكيان استوطن عقله وروحه ونال من كل قطرة دم فيه. الكل يسبّح باسم حبيبه شاء أم أبى في محراب مقدس.

لا قدرة للأنا على كبت انسياب العاطفة ولو قضى الإنسان في ذلك نحبه. هكذا صفق العم كامل ورقص مبتهجا مع الشباب فرحا بحبنا وبعودة يافع إلى الحياة، تجليات الصدق تبدو أمام ناظريه، وسنوات الجفاف قد انقلبت حياة، ومن دون أي امتعاض يحرج الحبيبين، قرأ

فاتحتهما خلسة عن والديه، واعتبرها العاشقين نذر حبهما وميثاق مجدهما الآتي.

أخبرنا أن خاتم الخطوبة سيتكفل به هدية إليهما وعربون وفاء وامتنان لوالدي اللذين لم يبخلا عليه في أحد الأيام.

انتابني الخجل حين تذكرت انفعالي عليه لحظة سقوط يافع، وجددت اعتذاري إليه، واحتضنته كما أحتضن والدي.

– أطلب العفو والصفح يا عم كامل، لا رحمني الله إن كنت سببا في كسر خاطرك أو جرحك، إنك تعلم حبي لك يا رجل، لكن تصرفت بسوء أدب معك، هل تعفو عني يا عمي؟

مسح العم كامل عبراته عن خده واحتضنني بقوة:

– يا بني إن وقع الغضب في النفوس أشد وقعا من أثر السيوف، افعل ما تشاء، لا يغضب الأب من ابنه.

انصرف ضاحكًا راضيا مرضيًّا عني وعن حبنا وعن يافع الذي استرجع أنفاسه.

لقد سكنت إليه واطمأنت لسمته، ناولتها حقيبتي الممتلئة بأوراق المعاملات والبضائع التي دخلت وخرجت طيلة الفترة الماضية، وجعلت منها مدخلًا لولوج روحها الرائعة.

إنني في حضرة الجمال، اخترت الصمت والنظر في عينيها العسليتين، نسيمها يذهب العقل، وخدها حب من المسك قد نبت.

تصاعدت أنفاسها، بالكاد أسترق نبضات قلبها، هي القلب وهو النبض هكذا قالت.

أستشرف أنفاسها، ولأول مرة لم أصدق المشهد، أريد فقط أن أتخيل ذلك قبل عمر من الآن كيف كانت الصحراء قاحلة، والأرض ميتة والكهف من دون باب، اختلطت الدماء بعناق رقت له القلوب، طلبت منها أن تمنحني يديها حتى تسكن روحي ويهدأ روعي، لم ترفع عينها أبدًا وكانت تشع حياء وأمانًا.

عكفت على النظر إليها من كل جانب، وحدي من خانه حياء اللحظة، ظلت ترتعد في مكانها وتبتسم من حماقتي وشدة تعلقي بها، لقد كانت عشر دقائق خالدة لن تُمحى من الذاكرة.

ترتعد رقية بينما العم كامل يتلو آيات من الذكر الحكيم. ما يزال يافع يحدث النجوم عن حالته لعلها تأتيه بالجواب، قد أوشك شريط الذكريات الذي جمعني بأخي الذي لم تلده أمي على النهاية. فهمت جيدًا لمَ والداي يعشقانه، الصبر الذي يبديه في جميع المواقف كان سببا في ذلك.

مسحت عبراته المنهمرة ودثرته كأمٍّ تضم ولدها.

الطريق المؤدية إلى المستشفى مكتظة بالسيارات، لم ينفع معهم صوت سيارة الإسعاف كي يتركوا المجال لنا، نريد أن نمر سالمين.

الناس من حولنا خائبون غاضبون وساخطون، تراهم من تحت سترة الزجاج يصرخون في وجه كل السيارات ولسان حالهم: اللعنة على جميع الأغنياء الفجرة، شر الدواب في الأرض، هكذا يرددون ويتلذذون في أكل لحومنا بلا شفقة. يعارضون بهذا التنمر سنن الذين خلوا من قبل. هل أنا الذي اخترت أن أكون غنيًّا متكبرا بهذا الشكل الذي يراني به قومي، مغرورا وطاغية من جبابرة الدنيا... لن يحتموا عليَّ النزول أبدًا إلى ساحة الفقر بمواقفهم المقرفة والساذجة. لو تطلب الأمر مني أن أفدي يافعا من عذاب يومئذ لفديته. تزايدت آهاته وأوجاعه، بينما رقية قد انضمت إلى عالم العم كامل تسبح الله وتستغفر وتدعو له بالنجاة

والشفاء. أي حب أكبر من أن تكون دعاء شخص بل صلاته كلها. لقد كان أخًا عطوفًا عليها كما أخبرتني، ومنحها كل صلاحيات التقرب مني، قدم لها صورة مسبقة عني وحبها في شخصي، أخبرها عن كل الانتكاسات التي عشتها، والجنون الذي كدت قاب قوسين من ملامسته، كان ذلك قبل أن تأتي والدتي بها إلى منزلنا بأسبوع، لذلك لم أنتبه إلى فحوى تمتمته يوم أردت أن أخبره عنها. قد أخبرها بكل شيء عني قبل أن تتعلق بي، الجانب المشرق والقلعة المظلمة التي أعيشها، فما كان إلا أن تقبلتني بقَبول حسن، وكفلت روحي، وأعلنت عن ميلادي حرًا من عبادة أمس، من غدي المفقود، وصرت طائرا لا يقبل سوى الشموخ.

كان حريًّا بها ألا تتنكر ليافع، ولو تنكرت له حينها لرميتها بعيدًا عن ساحتي ومملكتي، لكنها صدقته الموقف، وصانت عهد الأخوة، وأوفت بمنتهى الحياء والجمال الذي جمعها به. تذكرته في دعائها، وكان له حظ من ابتهالها وتضرعها لله الأحد أن يشفيه ويرفع عنه البلاء.

بعد أن انتهت من ذلك وأشرفنا على النزول بباب المستشفى احتضنتني بقوة...

– حبيبي لا تخف، سيعيدها الله سيرتها الأولى.

– أجل، إنني لا أشك في ذلك، إن رحمة الله قريب من المحسنين.

– متى تخلع عنك هذا القناع الذي يخفيك عني ويخيفك؟

– مجبر على ارتدائه، ماذا عساني أن أفعل؟

– أنت تعلم مع نفسك أنك الوحيد الذي ينفق من حبه على من يشاء من أحبابه، لماذا يكرهك الناس لهذه الدرجة؟

– ليس ذنبي، مجبر على مواصلة العرض وتقبل الشتائم، بالرغم من أنني لم أعبر بعد إلى حكايتي.

قبلت جبينها، وقلت في نفسي: لن يكفيني إنفاق عمري أمام حبك الذي يأسرني يا سيدة.

ولما سكن الألم عن أخينا يافع، ابتسم بصعوبة شديدة ومسك يدينا قبل الدخول إلى الممر المؤدي لغرفة العمليات وقال:

أحبائي، لا تتركوني أرحل عنكم، أنا لست لي وأنت تعلم جيدًا. أريد أن أفرح بولدكما وأداعبه، أرجوكما لا أريد أن أموت. كانت تلك آخر جملة قالها قبل أن يحكم باب غرفة العمليات الجراحية بشدة.

تناثرت مدامعي في حضن رقية، التحفت صدري وأطبقت على ظهري لتحكم حركاتي وسكناتي. لم يسمع إلا لنبض قلبينا ساعة العسرة، والناس من حولنا مندهشون مستغربون..

كيف لحبيبين ينطلق حبهما في ساحة المستشفى، الأطباء والممرضون مندهشون من شدة التئامنا، يلحظ الجميع آية من آيات الله الخالدة، ويقفون حقيقة عند معنى سكن الأرواح إلى بعضها وائتلافها كما يأتلف الورد بالنبت. سمعت أحد المارة –أحسبها طبيبة– كانت تتلو قول الله تعالى: «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكما مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون». أشارت إلى رفيقتها بتخليد المشهد بصورة تذكارية لنا، عندها تذكرت الأيام التي عذبني فيها الليل وما زال وفيًّا لعهد العذاب، فهل هي بداية البعث بعد الموت؟

تذكرت يوم افترشت رجل جدتي والتفت بي العائلة من كل حدب وصوب يترقبون أمري، حين التحفت حضن أمي التي نامت بجانبي لسنتين من الجحيم. تذكرت يوم مسحت دموعها بيد متثاقلة: لا تبكي يا أمي، سأعود بإذن الله لأكون ما أريد.

تذكرت كل العالمين الحالمين الذي حجوا إلى البيت لرؤيتي، فمنهم الذين قالوا لعل جنة أو مسًّا أو تخطى عتبة آثم سحرها أو لعل عينا حمئة قد أصابته.

تذكرت كل ما سمعته منهم، كل الأشياء التي كانت تقتلني فيزيد لهيبي وضياعي. تذكرت عندما كنت أمشي حافيا والسبحة في عنقي، أمشي لمسافات في عز الظهيرة والناس من حولي مستغربون: ما الذي أصاب الكريم ابن الكرام، هل جن جنونه؟ هل فقد عقله؟ هل صار أحمقَ؟ هل به جِنة؟

تذكرت اليوم الذي ذهبنا فيه عند بعض الشيوخ ليتلو عليَّ آيات الذكر الحكيم. تذكرت تأرجحي عند الرقاة باحثا عن تفسير لحالتي التي لم أفهمها. هل حقًا أستحق أن أكون من شر الدواب التي وصفنا بها أحدهم ونحن في الطريق إلى المستشفى.

تذكرت الشفقة، خلواتي وصلواتي عند الشجرة، تذكرت يوم دعوت الله أن يقبض روحي رحمة بي أمام هذا الشقاء. يا ليتني لم أتذكر شيئا.

جميعهم يتلون آيات القرآن الكريم وغارقون في البكاء، حتى جدي الطاعن في السن لم أر دمعته إلا في تلك السنة المشؤومة. يعزف بكاءه في حضرتي ويتحسر على رواية احترقت في مهدها. الأطفال الذين كنت أرقص معهم، صامتون يحاولون العبث معي كعادتي، اعتادوا أن أغني لهم كل ليلة بعض من الأناشيد.

تذكرت حين كنت كالجثة الهامدة يقلبني الجميع كيف شاؤوا وأرادوا، أتذكر حركة الأنفاس وصفير الأذنين ويوم الرعب، كيف أحرك حياتي التي انتزعت مني من جديد؟

حرصا على سلامتها وصحتها آثرت أن أكتوي وحدي بجحيم قلعتي المظلمة، وأن أبدو أمامها فرحا مزهوًّا.

فضلت في حضرتها أن أتوارى خلف حجاب نفسي وأواسي القمر بيدي. أتلذذ بنسمات الليل المعتقة، وأخيط ما تبقى مني في فرحي وأبكي في ضحكي.

لم أطلب من التي استعلت أن تتجشم الصعاب وتزهق روحها كي تفهمني، لم تكن تعلم أنني ولدت من أجل أن أسع الجميع فهما وحبًّا،

وإن كنت أبدو في نظر العديد من الفقراء غنيًّا متكبرا وطاغوتاً يجب أن يموت.

كنت أقضي ساعات من الخلوة مع نفسي من أجل أن أمحصها وأفهم طبيعتها، أملي ويأسي، موتي وحياتي، ضعفي وانكساري أمام ربي وحده قبل أن أخرج إلى الناس حيًّا يملؤني الانطلاق والرضا.

حتى وإن وصفت بالمتكبر نظير بعض تصرفاتي مع بعض العاملين عندي في الشركة أو ممن أصادفهم من سكان دور الصفيح الذين يرونني غاصبا للحقوق ممن استولى على ثروتهم وأراضيهم، لم أكن لأبرر موقفي إلا باتخاذ العذر لهم وأذهب حال سبيلي.

لم يفهم بعض الأطباء هذه القصة بعد، تأسرهم الدهشة والغرابة نظير ما رأوا، مندهشون من آية حبنا، لم يتمالكوا أنفسهم ليخلدوا موقفنا.

– يجب أن توضع صورة العاشقين في مدخل المستشفى ليصبح الحب ميلاد حياة كل المرضى... يقول مدير المستشفى.

لم أكن لأبرز ضعفي أمام ذلك الطيف الذي زارني في الحفلة من منطلق كوني الرجل الحائط والسند الذي يسع أحزان الجميع ويكشف غمتهم عندما تزول الأقدام.

لم يكبر الطيف بعد أو يستوي على سوقه، حمل ثقيل لم يألفه من قبل. كنت أخاطبه في المنام مندهشًا غيرما مرة: أيها الطيف الرضيع من تكون؟ كيف لم تفهم أن الحمل في المخاض الأول عسير وفي الثاني صعب وفي الثالث يسير؟ يا ليتك تعلم أنه كالطفل يولد من رحم المعاناة ويطبخ على ذات لا تعلم المنطلق والوجهة. سفينة تحتاج إلى آماد طويلة كي تستقر على شاطئ الاتزان والاعتدال.

سنوات من الجري في البحار ومن دون شراع تغزل الحب لكل خائف من كف السحاب.

هذا هو طبع المجنون الذي يداعب الخبل أحيانًا ويدخن كثيرا من روحي كي يعيش غيره آمنًا، موسوس كثير الشرود والتفكير، قائد من دون شطط، حنون رؤوف رحيم بمن استوطن روحي وجعله آخر رمق في عمقه.

استيقظت من نومي لأجد رسالة في أقصى غرفة الانتظار يعلوها غبار كثيف: إن الطيف يأمرك أن تحب رقية، وإن نفسا لن تموت جوعا بقدر ما تموت حبًّا.

– هل تقبلين أن تكوني زوجتي يا رقية؟

ازداد الخجل وارتفع منسوب الحياء، تذكرت ابنة الرجل الصالح الذي أنفق فيها كليم الله عشر سنوات نظير حبها.

ما كان منها إلا أن ارتمت في حضن سجادتها مجددا تحمد الله أن توج حبها بالحلال وقالت:

الحمد لله الذي سيجعلني لك زوجا وقرة عين لن تنقطع، إنني أقبل الزواج بك على كتاب الله وسنة رسوله الكريم.

انصرفنا بعد أن أعلنا زواجنا رسميًّا في قاعة المستعجلات، وودعنا حشد هائل من الممرضين والأطباء على أمل العودة غدا لزيارة يافع.

يناجيني الطيف مرة أخرى في طريقنا إلى البيت:

عليك أن تحمل لواء القيادة لا لواء التسلط والتحكم بشكل يرضيها ويزيدها ولعا وشغفًا بك، فلا تكن الذي يطفئ زوجه، إنك لم تكن يوما ممن تربى على التجبر والتحكم في الآخرين.

إن أباك بحكم إشرافه على العديد من المشاريع التي كانت تدر أرباحا كثيرة انتابه نوع من الغرور في مرحلة سابقة كالذي كنت عليه قبل رقية وسقوط يافع، لكنه عاد إلى رشده.

لا تستغرب كثيرا ولا تشترِ من باعك في المنتصف فانتهى إلى حيث شاء، من يصعب عليه فهم فلسفة الحب عندك، من يطرب أذنك بالفداء ويسمي الموت فداء المحبوب نفاقًا أو خروجا عن النص أو نقضًا للميثاق الغليظ الذي نأخذه معنا عنوان شرف منقطع النظير.

غادرنا المستشفى فرحين والعم كامل يدعو لنا بالبركات، وفي بقيتنا أمل كي تتحسن حالة يافع، داعيا الله أن يكون معه في هذه المحنة.

وكان في عون كل من لا يتحدث كثيرا ولا يفضفض إلا لنفسه، كان الله في عون من يلملم ما تبقى من انشطاره وحده ليفرح غيره، أهلًا كانوا أو صديقًا، حبيبا كان أو معشوقًا، من يفضل أن يموت حزنًا وحده وألا تقاس حبة من هذه الأنصاف الزاكية.

لم أكن من أولئك الذين يميلون إلى كثرة القيل والقال والخوض في أشياء إن تبدَ لي تَسؤْني.

أختار دائما أن أكون خلف ظلي السكون، وفي باطني ضجيج من الآهات والآمال.

تتصل والدتي الآن، لا شك أن الحفل قد ابتدأ، والعين على بعض بنات الوزراء، كما قالت سابقًا، كي أظفر بالمصلحة التي تنتظر أن أنالها منذ سنوات طويلة.

لقد خططت رفقة يافع لهذا اليوم، لكن تخطيطه لم يسبق قدره، فانتهى إلى حيث يوجد الآن.

– أين توجد؟ الجميع بانتظارك، لماذا تركتنا وحيدًا وخرجت؟

– معذرة أمي، أنا بالكاد أصل، مشتاق جدًّا لحفل التقاعد.

– حسنًا بني، لم يشأ والدك أن يبدأ الحفل إلا بحضورك، أسرع من فضلك.

– أنا الآن أمام باب المنزل، من يفتح لي؟

– اتصل برقية تفتح لك الباب أو العم كامل.

التفت إليهما وجدتهما غارقين في نوبات من الضحك، أنفتح الباب ونحن كلانا معك في الخارج.

أسرع يا عم كامل، اخترق السور الأيمن ناحية الواد وكن كمن لم يغادر المنزل قط، كأن شيئاً لم يحدث.

– حاضر أمي، أخبري العم كاملاً، حسناً قد فتح الباب.

تسللت رقية من باب خلفي يوجد خلف السرداب الذي احتضن جرح أخينا يافع، وانطلقت نحو المطبخ تعد المأكولات لبطون قد امتلأت ابتداء بأموال العديد من الفقراء.

هل هم في حاجة لكل هذه المراسيم كي يمثلوا طقوس الولاء لشخصين جمعا الدنيا في ساعة واحدة.

– أين كنت يا ولدي، تعالَ أعرفك بابنة رجل الأعمال "الوردي وناس". هذه ابنته تدعى سوسن.

– ولكن، ما الذي تفعلينه يا سيدتي؟

– أليست بالفتاة الجميلة، تمنيت لو تظفر بهذه الجوهرة قبل أن أموت، تأمل حسنها وبعدها أخبرني.

–حذارِ أن تعصي أمر والدتك!

– إياك أن تفعل بحق روح رقية!

لم أكن لأرفع بصري في وجهها، لكن إصرار والدتي حال دون ذلك، ترمقني رقية من بعيد.

– بالكاد تزوجتها ووعدتها أن تكون أهلًا لها، إياك أن تقدم على ما زينه الشيطان ليوقع بك.

– سنصير أحلى عروسين في الدنيا، ابتعد الآن أيها الطيف.

اندلعت مشاعر الخيانة والطعن في عمقي، لم أتصور أن أكون خائنًا يوم زفافي.

– لكنك لست بكل هذا السوء، سوف تقضي مصلحة عملية تروم استراتيجية الشركة العامة فيما يتعلق بالحسابات ودفتر التحملات الجديد ثم ميزانيتها وتوزيع الصادرات والواردات قبل أن تنصرف.

كان لا بد من اصطناع نوع من الود المبتذل اتجاه سوسن، ما يشغل بالي أكثر هو صورة رقية من نافذة المطبخ، كأنها تختزل الحزن

والأسى، تظنني بعت حبها وفقدت الشغف. تعتقد أنني لن أكون أهلًا لأن أُفدى بمثل ذلك الحب.

قطعت حديث أمي وطلبت من الرجل وابنته سوسن أن يمهلاني لحظة ثم أعود إلى مجمعهم.

أسرعت صوب المطبخ لأجد الكارثة، رقية مطروحة أرضًا وغارقة في عبراتها وبكائها الذي أذاب قلبي. لم أرض لنفسي أن أكون سببا في إيذائها، فهي قلبي ونبضي وسيمفونيتي وأنشودة المطر.

صحيح أنني متكبر لظروف عائلية وعملية، ولنشأتي البورجوازية التي تربيت على مبادئها في عائلة الريحاني المتخمة بالمال، لكنني طفل في حضرة الحب. لا حدود لي في هذه المملكة، قلعة الأرواح التي لا قوة لي أو طاقة على جفاء رقية فيها، لم أكن أتخيل أنني سأكسر روحي بيدي، اللعنة عليَّ إذا كنت سببا في هذا النحيب الذي قتلني. استلقيت بجانبها محاولًا التخفيف عنها وإبادة كل شكوكها المشروعة.

لم يكن يبدو لي إلا بقايا من خدها الأيمن وشعرها الطويل الناعم قد غطى وجهها. أبحث عن العينين اللتين تذرفان الدمع المتحول إلى نار موقدة في وجداني ولم أجدهما.

هات يديك حبيبتي، أين خاتم زواجنا؟ انظري أنا بجانبك الآن، تركت الكل وجئت إليك أبحث عن وطني. من لي سواك يغزل أحلامي ويقوي عزمي، يكشف جنوني ورعبي؟

حبيبتي، دعك من كل الشكوك التي تأكل روحك وتعذبك. إنها مصلحة تقتضي مني إتمامها، ولا يوجد شيء خارج هذا الإطار، أمي من دعتني للحضور ولا يمكن أن أعصي لها أمرا.

التفتت إليَّ بعد أن أزاحت شعرها الناعم عن وجهها لأرى العينين العسليتين الجاحظتين ولونها الأبيض الآسر. ابتسمت في بكائها وضربت صدري بقوة:

– يا روح روحي وقرة عيني، لا تكن عونا للشيطان، ولا تمتني بلا أجل أو كتاب.

نهضت من مكانها وأمرتني بالرجوع إلى الحفل، والحق أقول أنني كنت مصدوما من أثر الكلام الذي نطقت به في حضرتي قبل أن تسكب الماء على وجهي لأستيقظ من الغفوة هاربا. وقبل أن أعود أرحت قلبها وروحها وانطلق لساني من جديد:

– إن كنت ممن يموتون فداء من أجل هذا الحب، فإني سأموت شغفًا بك في كلا الدارين، فتجاوزي عني وأعرضي عن جهالتي.

تذكرت في نفس الوقت يافعا الممدد في المستشفى، يصارع الحياة والموت، كدت أن أبكي بدل رقية، ذرفت بعض العبرات الباردة من دون أنين أو نحيب يعقبها قبل أن تنتبه رقية لذلك الأمر، فمسحت مدامعي بمنديل يفوح بعطرها، قبلت يديَّ وجبيني ولسان حالها:

–أتمم حفل والديك من أجلي ولا تعكر صفوه.

عدت إلى السيد الوردي وناس وابنته ووالدتي، وكغيرنا من البرجوازيين تركتني والدتي رفقة سوسن، في حين اتجه والدها إلى مجمع آخر لنظل على شرفة واحدة نتجاذب الحديث وأطراف الكلام فيما يتعلق بالشركات الصناعية، فهي مديرة عامة لشركة تصنيع السيارات.

لم يخل حديثنا من بعض الدعابات المصطنعة، لكن الطيف يباغتني من جديد كأننا نعرف بعضنا البعض منذ زمن طويل. يزور ذاكرتي على فترات، وصورة أجهل تفاصيلها من حين لآخر. تساورني الشكوك حول طيف الخيال الذي يأتي قبل أن ينصرف مخلفًا معه وابلًا من الأسئلة التي حيرتني واستعصت عليَّ الإجابة عنها.

تقف أمامي سوسن في قمة جمالها وأنوثتها مرآة كل باحث حزين، شعر أشقر ناعم، استوطن اللون الأخضر مقلتيها، وخدود تجري من تحتها الأنهار، وشفاهها مثمرة.

أمام كل هذا الإغراء الفاتن، وجدتني أختلق الأحداث كي أنصرف بلا ذنب، تارة أتحجج بالذهاب إلى المطبخ، وتارة لأرى العم كاملاً، وأخرى لاستقبال بعض الشخصيات الوازنة.

فطنت للأمر بعدما أيقنت أنه حتما لا يوجد في قلبي سوى رقية، وعلمت أن الموقف لا يتطلب كل طقوس التجمل والتزين بذلك الشكل.

– تعلم جيدًا أنني المسؤولة عن قسم تصنيع السيارات، وباعتباري مديرة الشركة أقترح عليك الانضمام إلى فريقنا الذهبي المكون من تسعة أعضاء، الذين سيذهبون في رحلة إلى كندا للبحث عن آفاق تسويقية جديدة لسياراتنا.

– تعلمين يا سوسن ولعي الكبير بالسيارات، لكن من يدبر أمور الشركة من بعدي؟! انظري لهذين العجوزين، لا طاقة لهما على تسيير الشركة، فمن يقضي حاجتهما؟ ومن يغيثهم بعد الله سواي؟

– نحن بحاجة إلى كفاءة مثلك في مجال التسويق، وأنت تعلم أن لا مهمة دون مصلحة، كم يكفيك من المال لتنطلق مع الفريق إلى كندا؟

– ماذا تقصدين بالمصلحة؟ أظنك تهذين يا امرأة..

– حتى وإن كنت تنتظر هذه المصلحة، لم أكن أتخيل أن تكون سورا قصيرا بهذا الشكل أيها الأحمق.

– فلنفترض جدلًا أنني قبلت بالعرض، هل سترافقين أعضاء الفريق إلى كندا أم لا؟

– أنا هنا أصدر الأوامر فقط، فمن مصلحتك القبول إن كنت تريد تحسين أوضاعك الاجتماعية أكثر.

– أكثر مما أنا عليه... لا أعتقد ذلك.

فاجأتني ردة فعلها عقب السؤال، لا بد أن ثمة شيئًا يحصل دون أن أعلم.

إنها كانت تخطط رفقة زبانيتها ممن سمتهم بعناصر الفريق المزمع سفرهم إلى كندا بأن تختلي بثروة عجوزين طاعنين في السن وأشرفا على النهاية، لذلك كان وجودي يقف حاجزا أمام خبث هذه الأفعى.

تذكرت السيدة أمي وشغفها الذي قادها لتعرفني بها وبوالدها. أيقنت أن ترددي على المطبخ والانصراف المتعدد من مجلسها لم يكن هباء.

علمت أن كل الجمال الذي تبدو عليه يخفي وراءه وحشًا كاسرا وذئبا ماكرا في صورة إنسان. لا حاجة لتوهم جمال يقوم على عرش الخداع وهوس المادية المتطرفة.

فكرت وقدرت وأحكمت خطتها اللعينة، ألغيت جميع الصلاحيات التي كانت بحوزتي وآفاق انتظاري من مصلحة عملية ظاهرها رحمة وباطنها عذاب. لم يتجاوز لقائي بابنة الوردي وناس ما تمر به المعاملات التجارية والمالية التي تتم بين رؤساء الشركات والفاعلين الاقتصاديين فيها. لم أبيت نية الغدر أو الطعن والفتك بأسرتها كما أضمرته الأميرة السوداء.

– عذرا سوسن، سأعود لاحقًا لنواصل حديثنا.

انصرفت إلى الحديقة الأمامية وسط الفيلا، تفوح نافورة الماء عطرا ودمع العين يجري تأسفًا على ذكرى يافع وروح أوشكت أن تغادر

الأرض. أتأمل وجه السماء الكئيب، أتنهد في غمرة سكرة الجنون: "في أي عالم توجد الآن يا صديقي؟"

تفطنت والدتي لوحدتي فجاءت تمشي على لحن ثم عانقتني:

– ما الذي يجعل فلذة الكبد في قبضة الوحدة، احك لي يا بني كل ما يجول بخاطرك.

حضنت أمي بقوة، معتاد أنا على استنشاق رائحة شعرها لأحظى بالجمع بعد الشتات. عطرها يسري في كل حبة مني، وتيني يسبحها كل يوم.

– لا شيء أمي، كيف يبدو الحفل؟ هل أنت راضية؟ أخيرا تقاعدت سيدة الكون بعد سخط دام ثلاثين سنة، مرحبا بك في ساحة الراحة.

فطنت لدعابتي وقالت: إنني مجنونة بك يا ولدي، لقد انتهت أيامنا تلك غصبا عنها، ونحن نخيط ثوب تقاعدنا بالمجان.

– إحدى السيارات التي جاءت رفقة المواكب، ضلت طريقها واتجهت في سبيل آخر.

– أظنها سيارة بوعبيد مجد وزير قطاع التشغيل وموكبه الخاص.

– لماذا لم يأت؟ ألم تخبره بموعد الحفل؟ أين هاتفك؟ أريد أن أحدثه.

لا تعلم أنه بالكاد كنا في ضيافة موته الذي كاد يجهز عليه.

– كيف تضطرب أنفاسك وتتصاعد نبضاتك قبل أن يتواجد في المستشفى في سابقة من نوعها؟ كيف تصارع أنفاسك كي تظفر بحياة؟

– لا يرد على الهاتف، ليست من عادته وهو الذي ينتظر الحفل بشغف.

– ماذا يجري؟ أين يوجد يافع الآن؟

– قد يكون نائما أو يشاهد لقاء الكلاسيكو بين "برشلونة وريال مدريد" في ذهاب نصف نهائي ملك إسبانيا.

– لا أطيق مشاهدة اللقاء دون يافع، اذهب وليأت معك.

– ما رأيك أن نشاهد بعضاً من دقائق هذه المباراة؟

حاولت ألا أكسر أفق انتظارها بخصوص صديقي يافع، فأخذتها إلى البهو والحيرة تنتابها.

إنه كارفاخال ينطلق من الجهة اليمنى، النفاثة كريستيانو غازي الشباك كما يحلو لك... سيعيد الكرة ويعذبهم في معقلهم.

أردت أن أختلق بعض المسببات التي تدرأ عني أسئلة أمي التي لا طاقة لي بالجواب عنها.

في غمرة الحفل وطقوسه الأرستقراطية المحيطة لم تجد والدتي بدًّا من الانخراط في جو الحماقة والشغف الكروي ولو بشكل يسير، ونادت بصوت خافت: *هالا مدريد*

يعتصر قلبي ألمًا وحزنًا من شدة التناقض الذي أتخبط فيه. أخ ممدد هناك، وأم تغزل الأشواق بمدامع الفرح، وأنثى قد استوطنت مملكتي من دون مقدمات.

وجدتني مضطرًّا لأصطنع تلك الهتافات المناصرة لريال مدريد حتى لا تستبين والدتي أمري، فقد عزمت على معرفة سبب غياب صديقي عن الحفل وهو الذي يشتاق إليه على حر من الجمر.

تصلني رسالة بالكاد من المستشفى، وبالضبط من قسم العمليات الجراحية، تحتم عليَّ ترك الحفل بشكل إجباري وفوري. كانت آخر جملة قلتها قبل أن أغادر البيت: *دعاؤك أمي*".

تتساءل أمي مع نفسها وتتجاذبها حواراتها الداخلية كأنها شعرت بشيء يخفيه ولدها.

نادت رقية من بعيد قبل أن تباشر أسئلتها كما العادة، لكن الذي أزال شكها هو ردة فعل الخادمة التي كسرت أحد عشر صحنا بمجرد أن استدعتها أمي، ناهيك عن احمرار وجهها وارتعاش قدميها ويديها.

انتبه الحاضرون إلى صدى الصوت المنبعث من داخل المنزل، بينما والدتي فقد هرولت جهة المطبخ كي تعلم الذي وقع.

انصرف العم كامل ناحية البهو المطل على الحديقة الخلفية متعقبا أثري منتظرا في نفس الوقت رسالة تبعث الطمأنينة في قلبه.

هل تعرض لمأساة حقيقة تعصف بحياته؟ كان ذلك آخر سؤال له ونحن في سيارة الإسعاف في تلك الليلة القاتمة.

– ماذا يجري هنا يا رقية؟

– لا شيء سيدتي، لقد تعثرت وزلت قدمي وحصل الذي ترينه.

– ما الخطب عزيزتي؟ أراك متوترة جدًا.

– لأنني أحضر لهذه الحفلة أول مرة في حياتي.

– ماذا أفعل فيك؟ لقد كسرت أحد عشر صحنا.

– ما تشائين سيدتي، أجدد اعتذاري إليك، لم يكن ذلك مقصودا مني.

– لا عليك عزيزتي، اتبعيني إلى غرفتي.

– ماذا عن الصحون؟

– إن كسرت فغيرها كثير، دعيها وشأنها، أحتاج منك الأهم الآن.

– تغير ولدي في الآونة الأخيرة، هل ترى رقية ما أرى؟

ارتبكت رقية من أثر السؤال، لقد كانت المرة الأولى التي تنبهت فيها والدتي لأشياء تقع في الفيلا دون علمها. يبدو أنها لمحت أثر حبنا على حين غرة، أو أنها تعقبت آثارنا في تلك الليلة من دون أن ندري، فمن يدري يا ترى؟

– سيدتي، يبدو أن ابنك متوتر نوعًا ما بفعل ضغط الشغل، وهذا طبيعي لشخص في سنه وفي مثل وضعيته.

– أظن الأمر يتجاوز ضغط العمل، عندما يغيب يافع يضطرب ولدي وتتغير نفسيته، وسرعان ما يتحول إلى كومة من الحزن تطفئ زهرة أمواجه.

كدت أبوح بالسر، لكن لم يكن لأخون عهد رفيقي إلا ساعة العسرة، هكذا كانت وصيته.

– اتصلي به، يمكنه أن يخبرك بكل شيء.

– لقد حضنني بقوة واستنشق رائحة شعري، وضع عطري في لحيته، هل تعلمين ما معنى ذلك؟

– لا، سيدتي.

– إنها الرحى التي تعصر فؤاد ولدي، فاضت عيناها من الدمع، تلطم الوجه وتشق الثوب في مشهد غريب جدًّا.

– أخبريني ما الذي يقع هنا؟

لم أتمالك نفسي من هذا المشهد الذي تفيض فيه عاطفة الأم عشقًا وتعلقًا بابنها قبل أن ينطلق لساني بالحقيقة بعدما كاد يجن جنونها، خاصة أنها تركت الحفل وأقفلت على نفسها الغرفة وأجهشت بالبكاء.

– سيدتي، أطلب الصفح منك إذ أخفيت عنك هذا الخبر، لكنني مضطرة بأمر من السيد ابنكم الذي أمرني بعدم إفشاء ذلك.

– تكلمي ماذا أصاب ولدي؟ هل عاد إلى جنونه القديم ونزعة الاكتئاب تراوده من جديد؟

– ما الذي حصل؟

– هو يافع يا سيدتي.

– حبيبي، أين اختفى؟ ما الذي أصابه؟

– يافع في المستشفى، وحالته حرجة.

وضعت والدتي كفيها على صدرها، الخنجر الثاني أصابها في مقتل من جديد. سقطت جاثية ولم تصدق الخبر، بالكاد لم تتقبل أن يصارع ابنها الثاني الموت وهو الذي لم يفارقه للحظة.

خرجت والدتي وملامح الخوف والذعر تعلو محياها، الناس هنا فكهين غير مكترثين بالمجزرة التي تعرض لها يافع. يا ليتهم يحملون في صدورهم قلوبا تبعث الموت حياة، وتنير اليأس بالأمل. الكل عاكف على النفاق، يتوزعون إلى مجموعات متناثرة ولا يسعهم سوى مناقشة الملايين والعقارات والحسابات المنتشرة في عدد من بلدان العالم. لطالما تساءلت حول مصدر هذه الأموال، أنى لهم التناوش من مكان بعيد.

لا أدري هل سيقف الحفل عند هذا الحد أم أن لوالدتي رأيا آخر؟

رسالة نصية تصل إلى هاتف أبي من أمي، مفادها أن ألغ كل ما في يديك الآن ولنلتقي في السرداب بعد خمس دقائق من الآن.

هذه الرسالة كانت كفيلة ببعثرة أفكار أبي، والحفل الذي انتظره مسيرة حياة على شفا حفرة من النار. من للناس بالمسامرة بعده؟ لا شيء يستدعي بعد هذه الرسالة المماطلة أو الخضوع لزمرة من المتهالكين.

حضر الرئيس الشرفي لمجموعة شركات أبي ونائبه التنفيذي حيث أمره والدي بملازمة الضيوف ريثما يعود.

– استمروا في حفلكم، مرحبا بالجميع.

نزع والدي سترته واتجه مسرعا نحو السرداب، ليجد رقية ووالدتي طريحتي الأرض وبكاؤهما يشق الأرض حزنا.

لا يعلم الرجل سبب البكاء ولا غايته، ما الذي غيَّر القمر إلى شعلة من نار؟ من ذا الذي أطفأ شمعتي بعد اتقادها؟ يقصد والدتي.

لم تمتلك نفسها حتى ارتمت في حضنه تناجيه وتشكو إليه سوء الذي ارتكبا. حتى اللحظة لم يفهم والدي شيئا، مكتفيا بضمها وتحريك رأسه إيذانا بموافقتها من دون دراية. من ذا الذي يناقش النسوة في مثل هذه المواقف أو يتحدث؟ هي الآن في منتهى ضعفها وانكسارها، ومهمتي كسند أن أحتوي ألمها حتى أعرف ما يقع في حفل الليلة.

– اذهبي وأحضري لنا كأس شاي، أظن أن المكان هنا يستحق سمرا رفقة حبيبتي.

– من يكون طيف الخيال؟

– لا عليك إنني أمازحك.

انصرفت رقية وعلى ملامحها بقية من تجليات الحب بعد أن رأته معلنا.

لا يكترث والداي من إعلان حبهما ساعة العسر قبل اليسر. لقد كانا ملاذًا للحب ومنطلقه منذ أن رأيتهما.

تعود رقية بعدما عم أمان الأب المكان لتنفتح سماء أمي بعبرات منهمرة.

– الويل لنا من أبوين نجسين.

– هل قصرنا في شيء، لمَ هذا الحكم القاسي؟

– ألست ترى ولدنا هذه الأيام؟

– كلا لم أنتبه لحاله مؤخرا، ما الذي يجري؟

– تكاد تكون غير مبال كعادتك.

– ظروف العمل هي التي أبعدتني عنه سابقًا.

– وما الذي يبعدك عنه الآن؟

– سأعوضه عن كل الحنان الضائع.

– كيف يأتي الذي لا يأتي؟ إنك تهذي يا رجل.

– ماذا تقصدين؟

–كيف لشاب أشرف عقده الثالث على النهاية أن تمنحه من حنانك الذي يشبه السراب؟

–لقد أضعته من حيث لا تدري.

– لا تقولي أن نوبة الاكتئاب قد راودته من جديد.

– هذه المرة على غير عادته.

– لم أفهم شيئا إلى الآن.

– إنه يافع...

الآن قد انتبه ليافع وغيابه عن الحفل، وهو الذي لم يفارق منزله قط منذ وفاة والديه في ذلك الحادث المؤلم الذي أودى بروحيهما لدار البقاء.

شريط يافع يعود من جديد، لكن بعد أن سقطت أوراق أشجاره في خريف عمره.

– لا أعلم سبب اختفائه الليلة.

– كيف يرى من لا يرى، إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

اضطربت أنفاس والدي وتصاعدت صور يافع في ذهنه، خفقان قلبه يحكي عن حبه لهذا الغلام. اتجه صوب البركة المائية يغترف منها غرفة بيده. فتح ربطة العنق الذهبية ورمى المناديل الخضراء. للتو قد وقف عند معالم طريق كلها حسرة وأسى.

– تكلمي بسرعة وأخبريني أين يوجد ولداي؟

– اهدأ قليلًا، سأخبرك لكن ليس وأنت في هذه الحالة.

ترتعش يد أبي من سوء ما سمع والدماء تجمدت في محياه، أما شفتاه فقد جفت سماؤهما من الماء، وبكاؤه لم يعد يجدي أو يكفي لاسترجاع يافع. لقد أوشك أن يحاكي ابن الرومي من حيث لا يدري.

ولما سكن عن أبي الغضب حضنته أمي وهي ترددد: يافع في المستشفى وولدنا برفقته.

تكلفت رقية والعم كامل رفقة المدير التنفيذي لمجموعة شركات أبي بتسيير ما تبقى من حفلة الليلة، حيث حافظوا جميعا على طقوسها بعد أن أعلن المعنيان بأمرها الرحيل عن القوم لساعات.

لم يعد يهمني بعد الآن أن أظفر ببنات الحفلة كما أخبرت يافعا من قبل لغاية مادية أو مصلحة عابرة، فقد وجدت في رقية عوالمي المشتتة وتتمة كياني المنشطر، وصرت أغنى الأغنياء عن التطلع لأي أنثى. قررت أن أعلن خطوبتي وأخبر والديَّ بسكني الذي وجدته، لكن ولما يستيقظ يافع من غيبوبته التي دامت شهرين بعد العملية الأولى. حيث تبين أنه بحاجة إلى عملية جراحية جديدة يستأصل بها ما تبقى من أربطة ركبته اليسرى قبل أن تعوض برجل صناعية.

كنت أموت في يومي ألف مرة، أفكر في الأشياء التي تثلج خاطر أخي، لم أجد أجمل من أن أفصح عن خطوبتي رغم الحسرة التي تأكلني جراء المجزرة التي تعرض لها.

تحركت مملكة الجنون من جديد واندلعت حرب الأفكار المتناثرة والأسئلة القاهرة، وبعد طول غياب تعود نوبات الخوف والهلع والكآبة تحاصرني من جديد... ليتني منعته من تعقب تلك السيارات، ليتني كنت معه لأدافع الموت عنه.

– السادة رؤساء الشركات، ممثلي وزارة المالية والاقتصاد.

يشرفنا أن تكونوا حاضرين في حفلة تقاعد السيد الريحاني وحرمه، نرجو أن نكون عند حسن كرمكم.. تقول رقية

يقول العم كامل:

– سيعودان بعد نصف ساعة من الآن، واصلوا الاحتفال.

تشير الساعة إلى الثانية عشرة ليلاً، ما يزال الناس يتخبطون في بقايا تمثيلهم المصطنع، ثملون حد النهاية بالرغم من كونهم يساقون إلى الحفل بخناجر من حديد تكبت ما تبقى من نخوتهم لكنهم بارعون في تجسيد الأدوار بمنتهى الدقة.

أخبرت والدتي سراً عند بركة الماء الأرجوانية في الجانب الشرقي من السرداب ثلاث ساعات قبل انطلاق موعد الحفل، أننا لسنا بحاجة لكل هذا الحشد، ولنكتف بحفلة صغيرة تستجمع قوانا وتوثق أواصر أمان غائب لأزيد من عقدين ونصف.

يبدو أنني كنت أجهل مراسيم وطقوس هؤلاء الجبناء آكلي المال العام إلى أن رأيت مدى تقديسهم لمثل هذه الحفلات البورجوازية. بالرغم من يقينهم بأنهم يغزلون النفاق مواقفَ للطرف المحتفى به، فهم لا يبالون إلا لما ارتضته أعرافهم في مثل هذه المناسبات.

تأسرني فوضى الحواس وتشعب الأفكار، تقتلني عبثية المشاعر وتكاد تفتك بأعشى ضليل فقد طريق النور في هذه الحياة.

تتصاعد خطوات والدتي وأبي، ما أزال مرميًّا في قاعة الانتظار أترقب الجسر البعيد لأعبره، جسر يافع الذي أوشك على الانهيار. ملأ فؤادي ذعرا وخوفًا، بكيت حالي وحاله وسائر المرضى المنسيين هنا، لا شك أنهم يصادفون الموت في كل يوم.

من دون أن يمنحهم تذكرة عبور تخلص أرواحهم من لعنة الشقاء التي تطارد أبدانهم وأرواحهم وعقولهم.

لا شيء يعجبني هنا، هل بإمكاني أن أجزم أنه على هذه الأرض ما يستحق الحياة!

الفرقة الجراحية الأولى ما تزال تائهة، والوقت ينهمر وينتهي إلى ضياع دون اكتراث. من سواي يضمد جرحه ويغيث قلبه؟

أنا للطريق يا يافع، هناك من أملى خطاه على خطاي، من نسج بعثه في الحلم بيمناي، من ألف دور البطولة وارتمى في حضن الحكاية شخصا ونصًّا. أنا للطريق... أنا للطريق... أنا للطريق.

أكرر هذا المقطع من خالدات درويش وأنا موقن بميلاد وبعث جديد، تذكرت جدلية الأمل واليأس، الحياة والموت، الغربة والضياع، تذكرت قاسم الورداني، وشكسبير، وابن حيان، وابن النديم، وابن حنبل، وابن الخطيب، وابن الرومي، والمتنبي الذي لن أخطئه حين أقابله.

انفتحت ذاكرتي بحزن جميل فهل ثمة من جيل سيقبل أو مضى يبادلنا أعمارنا ونبادله؟

هكذا سطرها تميم ودونتها في صدري وروعي قبل أن تنطرد كل جداولي من جنتي.

خرج الطبيب من غرفة العمليات، وصلت والدتي، بينما أبي لم يقو على هذا المشهد وظل بجانب الدرج الأيمن.

يتأمل الطبيب وجوه الحاضرين ولم يكن أحد سواي خلف الباب.

– الطبيب (مطأطئا رأسه): أين عائلة هذا الشاب؟

– أنا أمه وهذا أخوه.

– تبدوان أكثر تعلقًا بيافع وهو كذلك، إنه يحبكما وظل يردد اسمك ويحكي مواقفه معكما ساعات قبل إجراء العملية. إن هذا الشاب صبور جدًا.

– ماذا يجري أيها الطبيب؟

– أبشرا، فقد نجحت العملية والزيارة ممنوعة الآن، إلى اللقاء.

كانت الفرحة التي اقتلعنا من دنيا الكوابيس، تداخلت مشاعر الحزن بالفرح، الدموع منهمرة والنحيب يعلو المكان.

هرولت مسرعًا إلى أبي الذي لم يكن بمقدوره أن يتحمل ما يمكن أن يقوله الطبيب من خبر، حاولت أن أصل الفراغ الذي تركه في قلبي لعقدين بساعة تختلط فيها مشاعر الأبوة بمشاعر الاحتياج إلى الأمان.

– يافع بخير يا أبي.

– الحمد لله على فضله.

– يقول الطبيب إنه مقاوم من طراز رفيع ولم يستسلم للضعف أثناء العملية.

–هل بإمكاننا أن نراه الآن؟

– لا يمكن، إلى الغد إن شاء الله.

توسطت والديَّ لأول مرة، وحملت حزنهما على كتفي كي ينطلق الأمل فينا من جديد. مسحت دمعهما قبل أن أزف إليهما خبر خطوبتي.

لم أكن أعتقد أن أمي بهذا الذكاء والفطنة ونحن على أعتاب باب الخروج من المستشفى. ترمق اللوحة من بعيد وتنظر إليَّ ولسان حالها: هل فعل فعلته أم يُخيل إليَّ فقط؟

– انتظراني هنا سأعود بعد قليل.

– لا تتأخري، نحن في الكافتيريا في انتظارك.

توجهت أمي إلى المدير العام للمستشفى لعلها تجد أجوبة للأسئلة التي بعثرت ذهنها بعد أن اطمأنت على يافع.

– معذرة سيدي، أريد أن أسألك.

– تفضلي.

– من يكون ذلك الشاب والشابة اللذان زينا اللوحة بمداد عناقهما.

– ومن تكونين؟

– أنا أم لشاب يشبه الذي يوجد على اللوحة، لا يفارق الحب عقله ووجدانه.

– هذه اللوحة ملاذ كل المرضى في هذه المستشفى لأنها تبعث الأمان والاطمئنان في نفوسهم.

– إنها تفوح صدقًا وأمانًا.

– إنها لحبيبين أشرقت شمسهما حبًّا قبل أيام.. والغريب أن حبهما قد اشتعل خوفًا على صديقهما الذي فقد رجله.

– تقصد المريض الذي يوجد في الغرفة 38؟

– نعم سيدتي.

لم يخب ظني إذًا، لقد فعل فعلته دون علمي، هكذا هو الحب لا يستأذن القلوب لأنه رزق، والرزق لا يحيط بساحته دنس أو فجور.

– انظر إلى صورة ابنك كم تبدو جميلة.

– ما الذي تقولينه يا امرأة؟

– أقول الحق الذي رأيت وسمعت.

– فلتصدع بحبك ولا تخفه، مبارك لك يا ولدي.

– كنت سأخبركما ونحن في الطريق، أنا آسف أمي إذ أخفيت عليك.

– مبارك لك يا ولدي.

لأول مرة شعرت بحب الأب وأمانه بحيث لم يمانع في ذلك.

– من سعيدة الحظ التي فازت بقلبك؟

– لقد كبر ولدنا وأعلن الحب وطنا في الأرجاء، إنني فخور بك.

– إنها رقية.

– لقد فعلتها أيها المجنون وضربت الحسن والجمال بضربة واحدة.

– ما رأيك يا أمي؟

– كل السلام والأمان لهذا الاختيار السديد، رقية تحبك بجنون.

– وما دليلك فيما تدعين؟

– كل الأشياء توحي بذلك، بدءا بذكر اسمك أمامها، مرورا بمراقبتك، وصولًا إلى حفظ السر والعهد... أبشر يا بني.

– لنجعل الحفل حفلين إذًا، خروج يافع من المستشفى وزواج ابننا برقية.

بعد وصولنا إلى المنزل لم نجد إلا العم كاملًا ورقية وبعض الأوراق والقنينات المتطايرة. تأكدت حينها أن والديَّ قد نثرا الوهم عندما راهنوا على أوغاد لم يتخذوا لهما أي عذر.

انصرف الجميع وساد صمت مرعب في أنحاء المنزل، أطلال قد هجرها السكان وهذه آثارها.

لم أجد ما أسلي به والديَّ سوى أن أعلن عن زواجي برقية التي لم تصدق الخبر فور علم والدتي بشأن لوحة المستشفى.

هذا الحفل هو الذي يجب أن نهيئ له جميع المأكولات وصنوف المشروبات وطقوس الولاء دون نفاق.

– مبارك لكما.

– بالرَّفاهة والبنين.

خرج يافع من المطبخ حاملاً معه عروشًا من الورد عابقات، بالرغم من صعوبة المشهد الذي نراه أمامنا ووقعه الشديد علينا إلا أنه خالف جميع التوقعات، وإن كان يعرج ويمشي بحرج.

– بالحضن أيها الأحمق، تتزوج وأكون آخر من يعلم.

– حبست أنفاسنا جميعا بسوء ما حصل.

– حمدًا لله، أنا بخير وسنمضي معا حيث نريد، بالرَّفاهة والبنين، أنتظر عبورك غدًا... إلى اللقاء.

استقرت الحياة ومضينا إلى حيث ينتهي كل الأزواج ليلة زفافهم لنعلن معا ميلاد عهد جديد.

مرت سبعة أشهر على زواجنا، كم تبدو حياتنا جميلة ومستقرة، تكابد حبيبتي حملها بمشقة وعناء، لكن ذلك لم يزدها إلا ثباتا وعزما على أن تفي بوعدها.

تكلف يافع بمنصب نائب المدير العام لشركة السيارات التي ترأستها تلك الأفعى في السابق، في حين كنت أصل الليل بالنهار انتظارا لولي عهدي فقد أنبأتنا الطبيبة بجنسه في الجلسة الماضية.

حان موعد الولادة وازداد حمل المخاض على حبيبتي، لم أعهدها أن تكون ضعيفة بهذا الشكل، أين تحاليل الدم التي أخفت عني في الشهر الخامس من الحمل، التي لم يشفع لي حبها في أن أطلع على نتائجها.

لماذا تخفيها عني؟ هل تعاني من أي مرض؟ كيف لا أعلم بذلك حتى الآن؟

قبلتها ثم حضنتها وهمست إليها: ستصبحين أمًّا يا حبيبتي.

توجهت سيارة الإسعاف على وجه السرعة إلى المستشفى، ولم يكن بمقدوري أن أكون بجانبها في السيارة قبل أن أكتشف نتائج تحاليل الدم التي تخفيها عني في السرداب.

– ألن تأتي معنا؟

– سألحق بكم بعد خمس دقائق.

– حسنا، نحن في انتظارك.

لقد كانت الصدمة التي حولت مستقري إلى شتات وضياع، القاضية التي ستنهي جميع نبضاتي.

أخفت عني إصابتها بمرض السكري خوفًا عليَّ كي لا يندلع جنوني وتفتك بي وساوسي.

ستضيع مني الجوهرة قبل عبور القنطرة، ماذا أصنع؟ يا إلهي أغثني واحفظها يا رب.

بعد وصولي إلى المستشفى وجدت أمي بلا ركن شديد تمضي إلى بكاء يشق الصخر ماء، ووالدي يقول في هلع:

– قضاء وقدر... قضاء وقدر.

يقول العم كامل:

– لله ما أخذ ولله ما أعطى.

قلت في اضطراب وهلع شديدين:

– لا يمكن أن يحدث ذلك... مستحيل... أين زوجتي؟ فلتتكلمي يا والدتي، لمَ أنت صامتة كالليل؟ أين حبيبتي وقرة عيني؟

– صبرا جميلًا، يقول أحد الأطباء: فعلنا كل شيء لكننا لم نتمكن من إنقاذها.

علمت أنها قد ماتت وولت من دون رجوع، قطفت تذكرة رحيلها من دوني...

ماذا أفعل في نفسي؟

ماذا أفعل في جرحي؟

ماذا أفعل في سفينة بلا شراع؟

ماذا أحكي لولدي؟

لماذا لفظتني الدنيا وقهرت روحي بهذا الشكل؟

أليس لي حظ من الأمان؟

أليس لي كيان؟

هل سأنتهي من جديد إلى عادية السباع؟

ظل يرمقها من النافذة، جثة هامدة بلا حركة أو سكون، تمضي إلى الحق دون رجوع...

يشق رأسه بزجاجها لتختلط الدموع بالدماء، مردداً أمام الملأ:

تنسى كأنك لم تكن

كمصرع طائر

كحب عابر

وكوردة في الليل... تنسى

كأنك لم تكن شخصا ولا نصًّا

أنا ملك الصدى

لا عرش لي إلا الهوامش..

من سيقول مديحا في حدائق المنفى

أمام البيت

حرًّا من عبادة أمس

ومن كناياتي

واشهدي يا رقية، بعدك أنني...

لست حرًّا

حين أنسى

الفصل الثاني

بداية الحياة

يمكن لشخص أن يغير مجرى حياتك بأن يجعلها سيئة أو رائعة، كما يمكن للكلام أيضًا والأحداث أن تشكل منعرجا لا يخطر ببالك لتجعل منك شخصا آخر غير الذي كنت عليه سابقًا، لكن هل بإمكان الفقر أو الغنى أن يرسم معالم طريقك؟

كانت الحياة ترمقني بسهام عدلها ولا أبالي، فأنا سليل عائلة الريحاني الثرية. العائلة التي لم أعد أنتمي إليها بعد الآن، لا أحد يعلم حال الذي كان يستيقظ كل يوم داخل قصر فيه عشر خادمات وشتى أنواع المأكولات كيف أصبح.

يستيقظ في كوخ بجانب طاعن نهشه الخرف، قيل لي أنه جدي، بملابس بالية تطوي صفحات تاريخي القريب والشموخ الذي انتهى في لمحة بصر.

هذا الأكل لا يليق بشخص مثلي، لكنني مجبر على التزود به في ظل الأيام البئيسة التي انتهيت إليها. أيام غير منصفة، وحديث العجوز يوحي بانحطاطه. لم يعد بحوزتي مال أو جاه، ولم أعد قادرا على التكبر والاستفزاز، كان المال درعي وسرابيلي في نفس الوقت.

علمت جيدًا أن مثل هذه المحن بمثابة المدرسة، يتعلم المرء منها كيف يقاوم وكيف يعيش كأنه طفل جديد بدأ رحلة حياته في البحث والاستكشاف، أدركت أيضًا أن مثل هذه الفترات لا تأتي عبثًا في حياة الشخص، فسرعان ما يدرك من يحبه ويقف بجانبه ومن يدعي ذلك فقط، وربما بعد هذا البحث والاعترافات العديدة قد ينجح البطل أو يسقط أمام مجتمعه الساخر وأصدقائه الخونة، لينفروا منه ويجعلون منه فقيرا فقط لأنه لم يعد مثلهم، أو ربما ينجح ويفر بعقله إن أوتي حظًا. إننا ذوات متعددة في روح واحدة، وكل ذات تعيش فترتها معنا قبل أن تعلن موتها في معزل عن الكيان. إن كان الشر رائعا لصاحبه أحبه وأطاعه، وإن ملأ الخير فنجان صاحبه توكل عليه، وأما الذين يتخبطون بين الاثنين فستراهم لعقود قتلة خائنين وفي بضع دقائق يمثلون البكاء ندما على مكرهم وخبث سريرتهم.

هدنة مع روحي

أول شخص لم أر في عيوبه مشكلًا، فأنا بطبعي لم أكن أرضى بأحد ولا أحد يرضيني، لكنني رضيت عندما تجلت أمامي هاتان العينان العسليتان وذاك الشعر المجعد. الملابس التقليدية والحركات الطفولية جميعها جعلتني أبتسم دون شعور...

جعلتني أشتاق لطفولة منسية، غريب أمري! ألست ممن يفضل الشابات الراقيات مرتديات ماركات الشانيل؟ والحقيقة أنني لم يكتب عليَّ التيه إلا عند حدود بساطة هذه الفتاة، "كيف أنظر إليها بقلب مكسور تركه الجميع؟" علمت أنني أسير نحو طريق مجهول للمرة الثانية، هذا الارتجاف والخفقان يزيدان الأمر غرابة، من أنا حين تمر هي بجانبي؟ يتوقف كل شيء ما عدا قلبي الذي تكاد دقاته تسمع بصخب. جمال قصتي وأنا أرويها أنساني أن أعرفكم عليها، إنها فتاة من حيي وهي تسكن بجوار جدي حيث بات مسكني أنا أيضًا. تدعى «إيميلي»، وهي فتاة في غاية اللطف والجمال، لها وجنتان حمراوان من كثرة الجري والضحك. تراني أقف متواريا عن الأنظار كل يوم في عتبة الباب حاملًا فرشاة وورقة، أخشى أن تعلم من أي عائلة أنحدر ولا تتحدث معي فتحتقرني. لم تسألني لمَ لا أكلمها. إلى الآن، يظل النظر أفضل وسيلة،

تكفيني خيبة رحيل جديد. لا أستطيع رسمها لكن صورتها تبلع أحلامي في كل يوم. صعب على المرء تقبل حياة أخرى وأشخاص آخرين بعد الذين رحلوا ولن يعودوا...

بالكاد تنفست لأول مرة في ذلك المنزل وسط الحي الذي يشبه الكفر، رغم أنني لم أستطع رد السلام على جدي في كل صباح، خائفًا من أن يكون حقيرا مثل ابنه وأن يرحل بعد فلسفات عميقة. هو الآخر عجوز أقبل على مواسم الخرف، ما يزال متشبثا بالحياة لهدف ما، ربما ما يزال طامعا في إرث ابنه أو شيء من هذا القبيل. لم تعد النية الحسنة من متطلباتي لأجل عائلة الريح العاصف، مر ما يقارب الشهر على وجودي هنا وأنا بألف خير لأنني لا أتصنع أي شعور، كنت أرى وجه جدي في الصباح الباكر والليل القاتم فقط، وهذا ترك لي الوقت الكافي لأفكر وأراجع نفسي وأتقبل وضعي كي لا أنهار. فربما أنا لا أجيد الأشياء التي طلبت مني فقط، بل بإمكاني فعل أشياء أخرى. طرحت السؤال عليَّ مئة مرة والمتوقع أن السؤال يبادره جواب، لكن سؤالي إجابته سؤال.

تساءلت عن حقيقتي وماهيتي وحقيقة وجودي وأهدافي، فأنا لا أعرف إلا ما أخبرني به والدي، ويجب عليَّ أن أقرر الآن. طرحت كل سؤال يطرحه طفل منبهر بكل ما يرى أمامه.

منعت طرح هذا السؤال في السابق أما الآن فكل الأشياء تدفعني لطرح ما تبقى منه. أصبحت شاباً وصار بمقدوري مناقشة وتحليل أي شيء.

نمت تلك الليلة وقلبي مليء بالتساؤلات، كان لكل ليلة نصيب من أفكاري التعجبية، فليلة أسأل عني وأخرى أسترق فيها النظر من نافذة المنزل الضيقة لأرى طفلة تلعب وتضحك ليلاً، فكيف لها أن تضحك ووالدتها قد أخبرتها أن الغد لن يكون بخير. يمكنني أن أكتب قصة عن إيميلي، وربما كتابا لعمق معرفتي بها، بينما هي لا تعي بوجودي، هذه الروح التي تسكنها كانت تسكنني أيضا، أشعر أنني سأعيد روحي الضائعة إن اهتديت إلى شخص مثلها. إنني أضم بجوانحي أرضا تحضن سماء مليئة بالخوف والخيبات المتتالية. أردت الخروج من ذلك المنزل لأنه يعيد لي نفس شعور القفص والسجن. خرجت وأنا لا أعرف طريق العودة، ربما لم أكن أعلم أين أذهب، ولا أدري أيعيدني هذا الشارع أم تتنكر لي الأزقة بعد كل هذا الضياع؟ كان كل شيء مختلفاً وتقليدياً، صراخ في كل مكان وشجارات بين الناس على أتفه الأشياء.

كل شيء ملوث ليس كما أخبرني والدي. كان ملوثاً بالصراع، الناس تفعل كل ما بوسعها لتعيش، ثمن باخس حقًا، ومع ذلك أسمع

تعليقات من قبيل "الثمن غالي ولا يمكنني دفع الفواتير..." لم أسمع هذه الكلمة من قبل في قصرنا، ربما لأن مال هؤلاء الناس أقفل عليَّ بابا لسماع هذه الكلمة. تأسف كل ما بداخلي، رددت كثيرا أنني آسف، أحسست بهم وعلمت أن معظمهم يموت جوعا، أتسمع كيف يحاول الأشخاص النجاة في وعر الحياة وأنت لم تحاول يوما أن تنفض الغبار عن عقلك؟ مررت بشخص يبيع كتبا ولم أرمق إلا كتب الحزن والبؤس، حملتها وتفقدتها لأسمع صوتا بلغني، يقول:

– "إنه كتاب عن الحزن، فلا تشتره.." رفعت رأسي لأراها وأذهل بمن أمامي، إيميلي تتحدث معي، يا للروعة!

– لم يعجبني أي كتاب، ماذا تقترحين على مبتدئ مثلي؟

– إنك لن تستطيع مع ذلك صبرا.

وهي تضحك في بكائها أخبرتني عن جميع الكتب التي قرأت، جميعها انتهت بنهايات حزينة، جعلت عبراتي تنهمر كأنني أمام فارس أقبل من ملحمة وقالت:

– لا أريدك أن تنتهي إلى نفس المصير، ما رأيك أن تكتب كتابا بنفسك تكون نهايته سعيدة وتقدمه لي؟

صعقني كلامها الذي أوقف صراعات أفكاري.

– أنا أمزح فقط، إذن أنت جديد هنا، لمحت هذا من تصرفاتك.

– نعم، يبدو أنني سأصبح منكم قريبا.

– لكنك من عائلة الريحاني، ماذا تفعل وسط بين مثلنا.

– كيف سأخبرك يا إيميلي، من أين أبدأ، هل أقول لك أنني بت سيد القوم وغدوت تحت الأقدام مدانا بالجنون والضياع.

تفوح قمامة الريحاني بهتانا وزورا قبل أن تصبح محط جميع أنواع السخرية والنكت، وأعلم أنني لست لي فهل أكذب وأقول أنها مجرد عطلة أقضيها هنا أم أصمت ليكون دليل استسلام وخنوع؟

لم أعد أريد الاستسلام بعد الآن، أخذت نفسا عميقًا وقلت:

– لست من عائلة الريح المرسلة ولا من صنفها، أنا الآن كما تعرفينني لست شخصا آخر، ابتسمت وحملت العديد من الكتب، قبل أن ترحل وفي لسانها بقايا هذه الجملة:

– نلتقي قريبا.

عدت للمنزل بعدما أوصلني شاب تعرفت عليه بعد أن حاول البعض استغلالي وسرقتي، تدخل وقال لهم: "هذا صديقي، لا تحاولوا يوما سرقته". رحلوا فجأة دون إضافة أي كلمة، ثم بدا لي أنه لا يقدر على الكلام بسهولة ولا يستطيع النطق بسرعة، تأسفت لحاله وشكرته، أخبرني بعدما أدرت ظهري لأدخل المنزل أنه ساعدني لأنني أشبه شخصا كان يعرفه، ليتوقف عن تمتمته قائلًا بحزن: "لكننا فقدناه، لكننا فقدناه".. أكمل طريقه ودخلت المنزل مستغربا من حالة هذا الشاب، لأجل صديق فقط يفعل المرء كل هذا، من أجل سلامته يضحي صاحب العهد بنفسه ليحمي صديقه؟ وكنت أعلم أن الصداقة في زمني مجرد استغلال وتبادل للماديات فقط، ولم أكن أعلم أنها تتجاوز الجسد إلى الروح.

غبطت الشاب في لحظة واسترجعت أنساق تفكيري من جديد أحلل مدى قدرة الإنسان أن يمتلك شيئا حقيقيًّا في هذه الحياة بإمكانه أن يكون سنده وروحه دائما، أن يملك أشخاصا لا تحجبهم الأعلام وأصدقاء أوفياء مفعمين بالحب، ومجتمعا يتنفس الحرية. ليت شيئا من

كل الذي يجول بخاطري يحدث ليكفيني عيشًا. بدأت فكرة الحياة تأخذ شكلًا يشبه خرائط الإنقاذ من مأساة حقيقية قبل أن تجيب عن أسئلتي.

من أنا؟

قد لا يتطلب هذا السؤال جهدًا لدى الناس لتباين إجاباتهم السريعة، أما بالنسبة لي فيتطلب الجواب عنه وقتًا طويلًا، إنه سؤال متعلق بوجودك وكيانك، بغائيتك ومصيرك ودورك، من أنت في طفولتك؟ ومن أنت في منتصفها؟ ومن أنت الآن؟ ألم تتغير فيك أشياء منذ طفولتك إلى اليوم؟ أتذكر حين أجبت أول مرة عن هذا السؤال كان جوابي على هذا النحو:

لا أعرف من أكون ولا من أين جئت وأين أنتهي، بوصلة طفولتي مفقودة، ولا أعلم شيئًا عن منتصفها، لكن إن أمكنني معرفة نفسي فيمكنني القول: أنا شاب فقد كيانه وأعلن انشطاره، تجرعت قطرات الغرور، وأظن أنه انعكاس لطفل مكسور، هذا الذي يخبرني به قلبي. متكبر وما التكبر إلا انعكاس للألم، بداخلي طفل حزين وأشياء سيئة لا معنى لها، ولأنني أخوض هذا النقاش بملء إرادتي أدركت أنني ما أزال ذلك الطفل الذي حبس في القبو عندما رفض شرط والده، ما أزال الطفل الذي صفعه الخذلان آلاف المرات لعدم إنصاته لوالدته

واستجابته لدروس الكبرياء التافهة. أدركت أنه مهما شعر المرء بأنه غريب عن نفسه عندما يربى على تقاليد لم تجد لفؤاده سبيلًا وأن شراعه الوحيد هنا هو تشخيص مشاهد هذه الدروس، فهو حينها يؤكد لنفسه أنه ما يزال الطفل الصغير يحكمه، الطفل الذي حاولت السحب إجهاضه، الذي يتعرض لمحاولات القتل من بعضهم. وأشعر رغم كل مساوئي أنني مازلت جيدًا، وحين أرى طفلًا صغيرا لا أستطيع أن أكبح شعوري بالتقدم نحوه ومعانقته، أو مجموعة من الأطفال يلعبون كرة القدم لا أتحكم في نفسي إذ سرعان ما أجدني في ساحة الملعب غير مكترث بالبقية. أنا أيضًا حين أسمع أغنية أحاول تقليدها ومحاكاة نغمتها. كم كان فضل هذا الطفل عليَّ عظيما حيث جعلني أفعل أشياء غبية تافهة ومضحكة لدرجة البكاء.

ما الهدف من حياتي؟

سؤال آخر يجعلني أتذكر بعضًا من إجابات أبي عندما كنت أسأله عنه دائما في صغري.

بني، إن هدف الإنسان من حياته المال والنجاح، وإن تجاوزت ذلك، عبث الحب والفقر به. كنت أعلم أن لا أهمية للمشاعر عند أبي ولا الفقر، لكن الحب في نظري عظيم، ومن أوتي حبًا فقد أوتي خيرا كثيرا. يا سادة، لا تحملوا كلامه محمل الجد، فالرجل الناجح الذي حدثكم عنه لم ينم يوما دون كوابيس تطارده. الرجل الطموح والغني بنظركم لم يتقدم يوما للتخفيف عن آلام ابنه، ولم ينفق ذرة حب عليه. إن الحب يصنع فرقًا لا يراه أعمى البصيرة، الحب يبني الأرواح وأوتاد الكيان والوطن، فلا تدفعوا الثمن.

لقد كان السعي إلى المال هدفًا أساسيًّا لدى أبي، ولم يعلم أن الأخير يطلبه إلى أن ينقطع عن الحياة، فلا داعي للركض والجنون به لهذا الحد.

أتساءل هل يصنع المال بأصحابه فرقا بهذا الشكل؟ لقد أوغل ذلك في صدري وأعقبني مفارقة قد يتخيلها المرء. إنني بين اختيار الغنى الفاحش وكل ما أريد، والذي يبدو في حقيقته كذبة صادقة ومنه يحصل أبي على ما يريده مني، أو أختار العيش بين ما يسمى خردوات المجتمع، ولحسن الطالع والحظ أصبحت منهم وشعرت معهم بالأمان والحرية التي تصادف طيرا في غدوه وآصاله، الآن قد أطلق سراحه بعد سجنه مئة

عام. هدفي الآن أن أجدني بين هذا العالم الجديد حيث المناخ يسمح لي بالتنفس دون استئذان. يمكن للشخص أن يعمل من أجل كسب المال والنجاح بعد أن يجد روحه. وافقت نسبيًّا على موقف والدي حول فكرة أن المال هدف الحياة مع بعض التحفظ، ولو كان حقًّا هدفًا فإنه يتطلب روحا وشخصا يعبر إلى نصه بضمير ليس قاتلًا مرتزقًا تخلى عن عائلته ومشاعره وقلبه ليصطاد الأوراق النقدية. لا تصدق من قال أن المال ليس مهمًّا، أنت سافل كاذب إن قلت هذا، كن إنسانا بكل حرف يتودد إلى معناه في هذه الكلمة، وإن قادتك السفينة نحو النجاح تذكر أن الحياة تتطلب الأصفياء الأقوياء، واعلم أنه لا مكان للضعفاء الذين يعترفون بعد خسارة هزيلة أن اللعبة كانت قاسية. كن كالشجرة التي تتزين بموسم الربيع بعد أن أكلتها رياح الخريف، كالذين أشعلوا أناملهم شموعا وانشطروا آلاف المرات، ولئن محى السير آثار خطواتك على الطريق وصورتك الحقيقية، فستحيا حيث تكون، لكنك لن تصبح في النهاية مثل والدي الذي لم يعد يتذكر ميلاد ابنه الوحيد، وربما بعد أول مشكل قد تتبرأ منه، لذلك أعد نفسي ما إن أجدني سأضع أهدافًا أسمى لتقودني إلى فردوسي الأرضي.

سر بيتي وبين رقية

"للأسرار قيمة عظيمة في نظري، فهي تحكي عن شخصية الإنسان أكثر من أي شيء".

لابني: أنت سري..

إن كنت تقرأ يا ولدي هذه الكلام، فاعلم أنني خيرت بين أمرين أحلاهما مر. أن تعيش معي فقيرا حزينا دون شيء يرضيك، أو تعيش بين أيدي أمينة تهتم بك.

شعرت في اللحظة التي تركتك فيها بإحساس الذي فقد ابنه في الحرب. تسرب الموت إلى قلبي ودمي، أطراف جسدي ترتعش من فداحة ما قمت به كأنما الثلج تحت قدمي. بدا لي حينها أنني في عملية استئصال كبد وقلب عن جسد متهالك، بكلتا يديَّ نحرتك وقدمتك قربانا لحياة لا تحتاج قرابين أو هدايا. كنت الأب الثاني في القائمة السوداء التي تترك أبناءها وترميهم بعد والدي، علمت أنني سأكون مصدر معاناتك أكثر مما عانيته مع أبي. بالرغم من هذا فضلت الألم السطحي على الذي يترك ندوبا وجروحا داخلية كوني أجيد تشخيص الأدوار.

أعلم أنك لن تتذكر وجهي، يعني أنني شخص مجهول بالنسبة لك، لن تتذكر خطاياي أو تصرفاتي، ستعلم فقط ما سيقوله لك الناس لتصبح لاحقًا الحقيقة. لن يخبروك عن كل ليلة كابدت فيها أناشيد المطر الحزينة، قسوة والدي وهواني على الناس. كم أعدت الكرة آلاف المرات محاولًا تقنين مسمعي وإيجاد كلام جميل منه دون جدوى.

أتذكر وجهه وخطاباته الرسمية التي تجعلني أفضل لو أنه رحل قبل هذا وكان نسيا منسيًّا. ما كان ليترك ثقل شخصين أحملهما بداخلي في كل خطوة أخطوها. أنا قتيل والده لكنني قاتل مفترض، أتنقل بين أنفاس القتلى دون حماس، أرتدي قناعا يخفي حقيقتي لئلا يرى ضعفي أحد.

لقد خططت وفكرت مليًّا رفقة والدتك في اسمك، عشقناك قبل أن نراك، رممنا وبنينا الحلم معا، وهدمنا جميع الحواجز من أجلك. كم حلمنا! كم تمنينا وشئنا! عائلة جميلة ومنزل بسيط يخبئ أسرارنا، يخفينا عن العالم الخارجي ويبعدنا عن ضوضاء المدينة، ينسينا هواء المدينة الملوث. مكان عائلي نعيش فيه ببساطة ونعوض فيه الأيام الحزينة، مازلت أملك ذلك المنزل بجانب الحديقة الخضراء، لكنني لا أملك العائلة التي حلمت معي بهذا. لقد كتبته باسمك وتركناه لك هدية لترى

فيه جمال والدتك ولتتذكريني في بعض أوقاتك. أنت سرنا الذي نسجناه معا قبل أن يتخطف الموت والدتك ولن يعلم به أحد. عليك أن تكبر في بيئة والدتك لتكون مثلها قوياً جميلاً غير مستسلم، إنني أنتظر رؤية شغف حبيبتي رقية فيك.

مرارة الحقيقة المتجددة

علمت اليوم أن أمي وأبي وقعا على ورقة طلاقهما، كيف لهما ألا يستشيراني؟ ربما تضمنت هذه الورقة سطرا تبرؤوا مني فيه. حزنت كثيرا، وما للشراب نكهة في أن يذيقني الخيال ويبعدني عن حياة الواقع بعدما وعدت نفسي أن أقلع عن كل ما ينسيني في هذا الألم، أقسمت على أن أشعر بكل الآلام التي ألفت جسدي، علَّ هذا يحيي عقلي المغترب ليرى الحقيقة. حبيبتي رقية، إن الذكرى تأكل عقلي وروحي، أطوف ببيت الحنين والشوق تقربا إليك، أقسمت على الذهاب دون عودة. قسمت ظهري، وانقطعت نجواي، وتصافح القادة بعد انتهاء الحرب، وانتظرت رجوعك إلى جسدي فأبيت إلا أن تعرجي إلى السماء. علمت أن حزن المرء يزيد ما إن يعلم أنه بعد هذا الصراع لن يجد شخصا يكذب عليه ما عدا الهوامش، لا شيء بعد فراقك سيعجبني، لقد انتهيت إلى مصير

يشبه جنوني وأصبحت دون جدوى. لم تنفع معي ثنائية التناسي والتعايش، أيقنت أن هذا الرفض الذي يواجهنا يجعلنا نرفض أنفسنا أيضاً، يجعلنا نأبى مواساة أنفسنا، أشياء بداخلي تقول إنك تستحق.

هل المواساة حررت يوما وطناً؟ أتمنى أن أستيقظ صباحا في منزل جدي وأجد والدي يقتربان ليعيدوني إلى المنزل. يبدو حلما جميلاً لكنني لا أستطيع مجاراته في الواقع، لا أستطيع أن أنسى كل ما حدث وكل جرح كانا سببا فيه. لا يمكنني الشعور إلا بالخزي والانكسار، وهل سيقدر أحد على القرب مني بعد الآن، إنني على شفا حفرة من النار إن لم أكن بداخلها حقًا. قد أوشك انفجار داخلي على الظهور. يكرهني الواقع وأنشد فعالية المشروب لعلها تبيت معي لأنطلق في الصباح مجددا، فلا طاقة لي على مجاراة هوس الليل وحداده. يقف جدي أمامي والحمد لله أنه كان كذلك وليس والدي، أزال الغطاء عني وقال غاضبا:

– أتظن أنك ما تزال الشاب الغني المدلل في قصره، هذا منزلي وهذه أحكامي، لا شراب بعد اليوم ولا تزييف للواقع، فلتعش إن شئت أو ارم نفسك في أرض لا تشبه هذه. أؤكد لك أن الاختيار الثاني أفضل.

يريد جدي المختل إنهاء حياتي التي كسرها ابنه، يا لها من عائلة، ليس بمقدوري سوى إتباع قوانينه الجوفاء.

لن أنتحر لمجرد أنني أصبحت يتيما، جلس العجوز بجانبي ويرمقني بنظرات مقيتة. وضع الطعام أمامي وانصرف، من الغريب أنه جدي فأنا لا أعرف شيئا عنه، ولم يحك أبي عنه أي قصة. هل تذكرناه أخيرا؟ شكوك عديدة بداخلي، بينما يعيش هنا حيًّا يرزق.

– لم لا يذكرك أبي ولا يتحدث عنك؟ ولم تسكن في منزل صغير ونحن كنا ملاذ للبذخ والترف؟

سقطت كل أقنعته المخيفة وتزايدت أطماع الغضب على قلبه وملامحه.

– لقد كنت السبب في موت حبيبة والدك فلم يسامحني، وبعد أن أصبح الوريث لكل شيء طردني.

– أتذكر حين أخبرني أنه أحب فتاة من هذا الحي.

قلت مستغربا:

أبي أحب فتاة فقيرة، إذن ليس من دون قلب كما كان يتظاهر.

– نعم بني، والدك كان إنسانًا، وقد جعلت منه سياسيًّا بحق، فلا تستغرب، لقد كان مثلك فيما مضى وأكثر طيبة، لكن حبه لهذه الفتاة أعماه وجعله غير مكترث بمنصبه بعدما قرر الهرب معها. كان الحل الوحيد أن أقتل تلك الفتاة.

– أقتلت نفسا زكية بغير نفس، لقد جئت شيئًا نكرا. قتلت فتاة بريئة، كيف تنام مطمئنًا هكذا وتعيش سالمًا بهذا الشكل؟

– هل تظن أنني حي الآن؟ كل ساقي سيسقى بما سقى، وقريبا سأتوفى. اطمئن، لن يبقي مرضي على ذرة مني.

ذهب ولم أره منذ حوالي أسبوع، لا أعرف هل أتأسف وأبكي حال أبي أم أنعى جدي الذي أوشك على الرحيل؟ هل أغزل المواساة بدمعي كوني الضحية الجديدة في عائلة الريحاني؟

كنت شاهدًا على حزنه، كيف كان ينظر وينتظر كل ليلة وكل صباح مجيء ابنه ليسامحه.

شعر أنه كان مخطئًا ويجب أن يجازى بالعفو قبل رحيله، فبالرغم من كونه غريبا بالنسبة لي لكن حزنه آلمني. كيف لأبي أن يفعل بي هذا الذي فعله به والده، لقد أصابني برصاصة الغدر التي أصابته حين تخلى

عنه والده. صدقني يا أبي لا أحد يستحق أن يعاقَب بالرحيل، رغم كل الأشياء السيئة التي فعلتها وحالت بيني وبين نفسك إلا أنني سأركض بملء الحنين عندما أراك، لأخبرك كم استبد بي الشوق إليك وأحكي لك عن معاناتي. يا ليتك ترد إلى رشدك فتفعل هذا لوالدك وتشعره أن الأخطاء مهما كان حجمها تظل فطرة فينا، وكفيلة بأن تصبح هشيما تذروه الرياح مع الوقت. أخبره أن الجرح يشفى بنفس، والروح تهدى إلى السلام بهمس جميل، واعلم أن الذين رحلوا لم يعودوا إلينا رغم حدادنا وبكائنا عليهم. صدقني، إنك تعلم من كانت رقية بالنسبة لي، وكيف هانت حبيبتي على الحياة. تمنيت لو أنني لم أكسر خاطرها يوما والكثير لكنني لن أستطيع تحقيق ما يندم عليه إلا بعد فوات أوان الندم. هذه ناصية الحلم تخبرك عنها، وهذا الرماد المتطاير ما تبقى من رفاتها، وهذه الجدران قد تجملت بخمارها ورائحتها بقبضة يدي.

لم أعد أملك شيئا لأعيده، كم يتمنى أحدهم أن يعيد الميت كي يقبل رأسه ويعانقه حتى يطمئن أنه بخير، فلا تكن مثلي حين يأكلك الندم، ذلك الوباء الذي تخشاه والذي يعيش فينا نحن معشر الأغبياء. اتصل به وأخبره أنك تحبه حد الكره الذي بادلته به، أخبره أنك قد نسيت شتائمه، مهما فعل ظل بقلبي نفس الشخص والروح، ونفس

تـراب الـوطن الـذي زرعـت عشـقه في أعمـاقي، فحـتى إن قسـا علينـا الرحيل وشعرنا بالغربة ينتابنا حنين العودة والرجوع.

هذا الكلام جعلني أتجاوز كثيرا من الأفكار المريعة، جعلني صامدًا وحزينا في الوقت نفسه، جعلني أردد في نفسي: "أنا هنا يا أبي حتى تعود لرشدك وتقرر أن تنسى ما حدث، أنا هنا يا والدتي أقف أغزل الانتظار شوقًا بفارغ الصبر، أنا هنا أحتضر وأنتظر مجيئك وموعد حديثك معي دون مقـدمات، دون دروس الكـبرياء المريعـة وقواعـد التـنفس والمشـي وضوابط التكلم. أريد أن أسمع سنا برقك قبل أن يشق قلبي.

كـلام جدي جعل العالم يبـدو صـغيرا في ناظري، بـل وأشـعل فتيـل غضبي. يمكنني أن أشعر وأتعلم الدرس فقط حين يكون قائله شخصا يشعر بوجود تلك الأفكار وتظل الحقيقة تقر بانتفاء العلاقة بين الأسطر والأحرف إلى الأبد.

عندما يصبح العظيم تافها:

عطفًا على العظيم الذي تهاوى حين قتلت فتاته وأذاقني الوبال لنيف وثلاثين سنة، لا أملك سوى أن أدعوه إلى أن يتخلص من الكلمة الثقيلـة الـتي اسـتوطنت جنانـه. اجـبر جناحـك المنكسـر كـي تحلـق، دع

الحروف وراءك واجرِ إلى النص، لا تحاول النسيان بقدر ما أدعوك إلى التجاوز.

سامح، أنت إنسان بحق:

ما صنع الناس بك غير الكسر كما كسروا جميعا حين عز فيهم الصبر وانقادوا إلى الغدر، ولئن علموا أن الجميع عابر غير مستقر لانتهوا إلى حياة. تعلمت بعدكم أن الجميل هو الذي يضمد جرحه بيده ويستغفر لمن تسبب في إيذائه.

يسامحه بلا تثريب عليه ويدعو له في جوف البئر. لن يفوز المنتقم وكل من حمل في قلبه ذرة من شر، بل الذي ترفع عن الغل والكراهية... الذي سامح فقط.

الشراب لكل فم، نكهة الخيال والحقيقة:

وضعني جدي بين الحياة والموت والأمل واليأس، لم أدرك حينها أنه يعني بالموت شيئا غير المنية، فهو في الحقيقة قد سمح لي بالشرب متى أريد، لكنه ظل يؤكد على جدلية الموت والشراب والعلاقة بينهما. ما بين الموت والعيش في الظلام والانبعاث من عبادة الأمس لمحة من بصر لمن ألقى السمع وهو شهيد. ما بين الموت والأحلام التي تبعدك عن

حقيقتك إلا الموت فداء. ينادي الشيخ بصوت خافت من أقصى يمين الكوخ:

– يمكنك أن تشرب متى شئت، لكنك ميت في جميع الحالات.

قوة أم غباء

عندما رأيت جدي يأكل من حزنه انتابتني الحيرة، أجهل ما جعلني أكذب عليه وأخبره أن أبي قد اتصل بي وسأل عن حاله.

وقف مصدوما بعد سماعه هذا الكلام، وملامح الحزن قد اختفت حين أعقبها بابتسامة خاطفة تلتحف الأمل.

– أعلم أنك كذبت، لكنك على كل حال أشعرتني بالراحة. أنا شاكر لك. يمد الإحراج يديه ليصفعني أمام هذه القوة غير اللازمة. تفوح الغرابة من مقلتيه والأسى، ثم سقط على الأرض كالمغشي عليه وبسمات ثغره تترقب الجسر البعيد لتعبره.

جدي الذي لم يخبرني والداي عن بطولاته ولم يرفع رأسه مفتخرا، أيها الغريب الذي ألقاني خريف العمر بين يديه بعد سنوات. شعرت بالقرب الذي لم يسمح لي والداي أن أشعر به بجانبهم، أيقنت أن هناك دافعا لحبه ووصفه بالجميل.

أشكرك أيها الغريب، فرغم الأيام المعدودات التي تنتظرك وقلبك المدسوس بين الفخاخ، جعلتني أرى جزءا من الحقيقة، دفعتني خطوتين لأحلم وأتمكن من استرجاع الماضي قبل أن يتمكن من الفرار مني.

انتهت أيام التعرف على حيي الجديد وناسه، أعرف الآن أنهم أناس يتطهرون بحق وليسوا بحجارة صماء.

أتى موعد الذهاب إلى المدرسة، يؤكد جدي أنها السنة الأخيرة، ولا بد من إكمالها هنا لأنني لم أعد مقبولًا في المدرسة القديمة التي كنت أرتادها، فهي خاصة بالأثرياء فقط، لا وسيلة أخرى، كما تقبلت الحياة هنا سأتقبل الباقي أيضًا.

مدرسة الأصدقاء

أخافني شكلها كثيرا، فهي توحي بالظلام، بشر هنا وهناك، وضعني جدي أمامها ورحل، أخبرني أنه لن يوصلني كل يوم، توجهت لأبحث عن الإدارة وكل الأسماء مبعثرة والألوان مكدسة. وجدتها أخيرا، دخلت فإذا بالمدير يوقفني.

– ماذا تفعل هنا؟ يا بني، إن عائلة الريحاني عائلة راقية ولا أحد من أبنائها يرتاد مدارس الفقراء..

– إنني أنا الآن بدون الريحاني ومجرد تلميذ يريد أن يدرس، ولا يوجد أي قانون يمنع الراغب في الدراسة من أن يتعلم.

صمته جعلني أتوهم أنه سيطردني، لكنه أعطاني ورقة فيها اللوازم وقسمي. تعلمت أن من واجب المرء شكر كل شخص ساعده حتى وإن كانت هذه المساعدة مفروضة بشكل أو بآخر. أعلنت قسم الشكر ثم انصرفت.

وجدت نفسي في نفق طويل مليء بالأقسام والأبواب، سألت شخصا تبدو آثار العمر على محياه. إنه الحارس، ولحسن الحظ أوصلني للقاعة، توترت وتبعثرت المشاعر بداخلي، طرقت الباب ليفتحه الأستاذ الذي كان في ربيع عمره، تبسم وقال تفضل، لحظات قبل أن ألمح نور

إيميلي التي تجلس في مقدمة الفصل. يا لسعادتي وحزني، ردة فعلي مفعمة بالخجل والتوتر أرخى سراياه في قلبي وهذا ما جعلني أختار طاولة بعيدة عنها. كانت الحصة الأولى والجميع يقدم نفسه لكن لم تتملكني المبالاة بشيء إلا لشخص واحد يدعى إيميلي. كتبت كل ما قالت عن نفسها، فهي شابة طموحة تعشق الرسم وتحب الأدب كما أحببته سابقًا. دائما كنت أراها تحمل الكتب بدلًا من أدوات التجميل.

كيف لفتاة تشع ظاهريًّا وخارجيًّا دون أن تضع بعضًا من مسحوقات التجميل. لقد كان محقًّا من قال: إن الذي يحمل عقلًا لا يحتاج أن يثبت أنه جميل ولا ليصرخ.

تدعى إيميلي، واسمها الحقيقي أمل عاصم، سُميت «أمل» إهداء لروح جدتها، لقبوها بإيميلي، والتي تعني الفتاة القوية المحاربة والمتمردة.

الأستاذ: حسنًا، إنه دورك وقد أشار بإصبعه إليَّ، لا يجلس أحد سواي، فالجميع يتخذ من المقدمة مقاما لموسمه ولا أعلم السبب.

– هل تتحدث معي؟

– نعم يا ولدي.

كانت للأستاذ كلمات ونبرة صوت تكاد تضيئ للساري الظلام، بل تدفعك للتمعن في كل حرف، فتود أن تجيب وتتكلم وتبوح عما يجول بخاطرك. وقفت فالتفتت إليَّ إيميلي، وبنظرات يغمرها التشجيع، وقالت بصوت خفي:

– قدِّم لهم نفسك. حسنًا، توقفوا، وأوقفوا كل هذا.

ماذا إن كرهوني وأصبحت نكتتهم اليومية كما كنا نفعل بهم في مدرستنا في السابق؟ اجتاحتني العديد من الأسئلة من دون أن أجد الطريق للجواب، من يكشف عن قلبي، فنبضاته تُسمع من بعيد كما لو كنت أعدو.

قال الأستاذ: تفضل، نحن في استماعك.

– أُدعى... أنا من عائلة الريحاني، انتقلت إلى منزل جدي قبل شهر من الآن.

لا يمكن القول أنهم لم يتفاجؤوا بكلامي، في هذا المكان لا يهتمون بأصول عائلتي التي أنتمي إليها. كانوا مختلفين كأن كل واحد كتاب خاص.

ضحك الأستاذ وقال: نحن لا نهتم بهذا، أخبرنا عن نفسك وما يميزك.

ما يميزني؟ ماذا يميز الفقيد؟ أريد أن أضحك، فكل ما أتذكر هو أن أشتري كل ما أريد، كان المميز آنذاك هو امتلاك المال.

– كنت أحب الرسم وأهوى الكتابة لدرجة الولع، فأنا من عشاق الحروف وائتلافها على صعيد النص كما الأرض والنبت.

– أتكتب وترسم في الوقت نفسه؟ إنه لأمر رائع، هلا حدثتنا عن بعض الذي كتبت.

خاب ظني عندما طلب مني القليل من كتاباتي التي أحرقها والدي، وأشعاري التي رميت من نافذة غرفتي.

– لم أعد أتذكرها لكنني سأحاول كتابة ما تذكرت منها ثم أعطاني القلم وقال لي أنت حر حين تكتب فلتكتب ما تشاء.

لقد كانت الكلمة التي خلعت عني الأحزان ورفعت عني حرج التناسي والاستسلام، فهل تعني بالحرية أن تتحرر من عبادة أمسك وغدك من يد المجهول؟

وقفت محاولاً تذكر كتاباتي الأولى، فما كانت إلا هذه الجملة:

"إنك تحيا بالقدر الذي تكتب فيه".

لقد مارست العيش طوال عمري من دون أن أحيا يوما، كنت أتنفس فقط، وها أنا الآن اليوم أحظى بفرصة كي أحيا.

والنظم والرسم، هكذا كنت أبحث عن الانتماء فوجدته في الكتابة.

كم يسعى الإنسان طوال عمره، يتأرجح بين حاجاته غير المتناهية والكمالية ولم يفكر في أن التوقف عن نشدانها قد يكون الخيار الأنسب. لم يكتب له شرف المحاولة بعد، الصحراء قاحلة، والأرض ميتة تنشد الحياة. فلا كان الوطن يوما ملاذاً للباحثين عن الأمان ولو افتدى الباحثون عنه بأرواحهم، ما وجدوه....

بعض أشلاء من حروف متناثرة على صحف ممزقة فوق سريري المتهالك، لملمتها وقرأتها أمام جدي الذي أبدى استغرابه وإعجابه من أثر الدلالة والرمزية: "ماذا إن كنا نناضل دائما لأجل أشياء نتوهم وجودها؟ من أحلام حزينة ومستقبل مدبر غير مقبل.. كيف الشعور يا ترى؟"

أُعجب الأستاذ بكلماتي كما أُعجب الآخرون أيضًا، لأنني في كل مرة كتبت فيها يترصد والدي بالأوراق ليحرقها وأمي كذلك.

الأستاذ: لماذا توقفت؟ أنت رائع ويجب أن تكمل.

– شكرا، سأحاول لاحقًا.

جلست ونظرات التلاميذ تتعقبني، هل أصبحت أضحوكة أم شخصا جديًّا في نظرهم، لا أعلم لماذا أنتظر مرور الزمن حتى أطير إلى المنزل، لم يعلموا أنني سجين لم يعرف التمرد أبدًا، والسجان هو نفسه الذي تكلم اليوم أمامهم، ليتهم يعلمون أنه كان مسجونًا في غياهب لا قبل له بها. أتدري ما الأصعب يا أبي؟ أن أستدرج نفسي القديمة، وهذا يعني ذكرياتي التي كنت أقتل فيها على يديك، هذه آثارها على عنقي، مرآتي شاهدة على ذلك، كنت أحمد الله في كل مرة حاولت أن أتنفس هواء ليس ملكك. هذه الروح تستدرجني لكرهك، وأعلم أن ذلك يتطلب مني جهد عمر كامل. كم حاولت أن أنفض غبار هذا الكره عن قلبي كي لا أصبح مثلك ومثل جدي. لا تنس أن الحرية أيضًا عدم إضمارك لمشاعر الغل والحقد والكراهية، فلا تشكرني، إنني بفضل جدي وهذا الحي ونفسي الجديدة تخلصت من عبء مشاعر التكبر والتعالي.

الأستاذ: يوجد السيئ كما يوجد الجيد في تلك المدرسة، وربما إعجابي به جعلني أظن أنه أفضل من مدرسة العربية. الوحيد الذي كان كلامه كالسهم يعبر الجسد والروح بالإضافة لمدرس الفلسفة. يدفعني إلى المحاولة والمغامرة وينثر في روعي بذور السلام. يبدو أنه مر بمثل الذي مررنا به جميعا، من نفس العقاب والجروح، لأنه في كل مرة يتكلم كان يصفني، وهذا الذي يظنه كل تلامذته. لقد جعلني أتأكد من صحة كلامي حينما قال لنا ذات مرة: "إنكم مستقبل وطننا، فلا تسمحوا لأحد أن يقول لكم غير ذلك، فلتدرسوا ولتراهنوا على تعليمكم. قد لا ينتبه أحد لهذا، لكن وقع الكلام كان سبيل خلاصي من التشاؤم، أتطلع كل يوم لملاقاته، فرح مزهو ومنطلق حر. جعلني أحب الكتابة من جديد، دفعني بكل قوة إلى تذكر ما كتبت، جعلني أحمل القلم لأكتب مرة أخرى.

أستاذ الفلسفة: كان صديقًا قبل كل شيء، إنه شخص يمكن أن يدخلك في أجواء الحصة فقط لأنه يشعر أنك تستحق ذلك، وأن يخرجك منها إن حاولت الاستهزاء بأحد تلاميذه.

من الذين أتقنوا مهنة التدريس بين الكثير من العالات على هذه المهنة.

أستاذة اللغة العربية: حسنا حسنا، إنها بمعنى الكلمة أستاذة، جميلة متألقة، تسمح لك بالكلام والحديث عن نفسك وعما تحب، يمكنني القول إنها عصبية بعض الأحيان، لكن مهنتها وإتقانها بهذا الشكل يجعل كل شخص في تلك المدرسة يحبها، مهارة تتطلب قدرة نسائية خارقة، إنها من أروع الناس الذين عرفتهم وصديقة طيبة، لقد رأت أنني أستحق، ولن أنسى أيضا أنها كانت تحب رسوماتي..

المدير: شخص طيب ويحاول بكل جهده أن يري الناس عكس ذلك، وقد نجح في أن يخيفهم ويعيد بناء قوانين المدرسة ويجعلها من أفضل المؤسسات التعليمية، كل ما يجب أن أقوله أن الذي يملك أساتذة مثل هؤلاء الذين يدرسون بقلبهم في زمن التزييف لا يحق له أن يخاف، الذين يقدرون أشياءك الثمينة ويمنحونك مساحة الانطلاق والتحرر، إنهم يبنون المستقبل الذي جعلونا صناعه بعد حين.

ولن أقبل أن يتم طرد الشخص الذي أمسك بيدي وسط حشد من المعلمين المزيفين صارخا أنني الوطن والمستقبل..

قيمة الاخراط

الدراسة خلقت لي مشاكل أنستني المشاكل القديمة، جعلتني أتعب لأجل امتحان أود النجاح فيه، وأحفظ وأفهم وأستوعب أشياء. أعلم أنها لن تنفعني في حياتي كما يقول البعض، ربما أفعل هذا لأنني أريد فعله، وأشعر أنني حين لا أتكلف على نفسي بالتصنع أكون سعيدًا، كما يسعدني تقرب إيميلي مني وجلوسها بجانبي والتنافس الذي تزداد بيننا حدته كل يوم، أدركت أنها تخيط جراح الفقد الذي سببه موت رقية بداخلي... كم كان ذلك يسعدني! بدأت حياتي بالتغلب عن كل أفكاري السيئة، ولئن كان الحي الشعبي سيئًا في نظرهم لكن ليس بالسوء المتوقع.

والمدرسة سجن لولا وجود أساتذتي المفضلين. يذكرني هذا بالدروس السهلة والمتوفرة في مدرستي القديمة، ونقود والدي التي كانت تطبع نتائج متفوق كل سنة دون عناء. وبالرغم من أن كل هذا يبدو في ظاهره جميلًا، إلا أن التعب من أجل شيء يذيقك الانتصار بعد الانتظار لهو الحظ العظيم.

مر شهر على دراستي وقد تغير الكثير، فما الذي سأفعله هنا لمدة أحد عشر شهرا؟

محاولات جدي:

فرح جدي حين علم أنني تأقلمت سريعا في المدرسة وبات لي أصدقاء، قال لي إنني أستحق كل ذلك بعد الذي تجرعت مرارته سابقًا. اشترى لي جميع اللوازم الدراسية وترك لي مالًا لأشتري ملابس وأحذية وبعض المأكولات. حاولت أن أقنعه بأن هذه الملابس التي أرتدي كافية لكن دون جدوى.

أمسك يدي وقال: "سأموت قريبا وأخاف أن تقسو عليك الدنيا وتتكل على السراب، أشيائي هاهنا وذكرياتي وندمي وخوفي وجزعي كل ذلك عند فاتحة الشمس ووردة المستحيل. أخاف عليك من الناس، وكل الناس أحرار ما انتزعوا من عمق أرواحهم كل الشرور والأحقاد.

سأجعلك تتعايش مع أصعب شخصية كي لا يوقفك أحد. إنك ستراني حتما عندما تخبرني فيها أن ابني قادم من أجل رؤيتي. سترى ضعفي وقوتي وأسراري وبكائي. إن الحياة أجبرتني على ذلك القناع قبل أن تأتي.

– لا يهم أي وحش ظننت نفسك عليه، ولا يهم حجم الخسائر التي قدمها الناس إليك بقدر وعيك بالأخطاء التي ارتكبت. لا يهم من كنت، لكنني سأصرخ في وجه الجميع، أنك الآن جيد وصالح للغاية،

يكفي أن تعتذر لأبي وستنقلب الأمور. كما أنتظر الآن فهو الآخر ينتظر في مكان ما أن تعتذر منه.

– هل حقًا ينتظرني؟ هل سيسامحني؟

– نعم منذ زمن طويل، أقبل ولا تخف يا جدي، لا تثريب عليك بعد اليوم.

إنني أقول ما يمكن للابن المنكسر أن يفعله لوالده، ربما لأنه غاضب سيقول لك كلاما قاسيا، ولأن جرحه لم يتعافَ بعد سيقول لك: لن أسامحك.. لكن الحقيقة في داخله تقول غير هذا، فلا تنتظر منه أن يقول شيئا.

شكرني بعين مليئة بالندم، بيدين باردتين يتفحص ملامحي، حاله ينذر بالبكاء. ماذا لو رآه أبي بهذا الشكل، هل يسامحه؟ رحل جدي مجددا وتركني في المنزل وحيدًا، لا أعلم أين يذهب كل يوم بباقة الورد تلك، كان لا بد لي من معرفة وجهته، قررت ذات ليلة أن أقتفي أثره، سرت وراءه بخطًى خفيفة، يخيل إليَّ أنني جاسوس حقير جراء هذا السلوك. ترددت وعزمت أن أعود إلى المنزل، لكنه فجأة توجه لمنزل إيميلي وقدم الورود لها، ملامحها غريبة، فأنا لم أرها بذلك الحزن يوما،

أدرت ظهري وقلت أن هذا أمر خاطئ ويجب أن أنصرف. استوقفني شعور ملحٌ حول الذي حدث. لا بد لي من معرفة الحقيقة. توجهت لبابها وطرقته، تفتح إيميلي وتترك لي المجال للدخول.

"ما الذي يحدث؟" هناك سيدة جميلة طريحة الفراش يبدو أنها على فراش الموت. يجلس جدي عند رأسها ويلامس خصلات شعرها الأبيض ويبكي كالوليد الذي يبحث عن أمه، كغريب ألقاه الريح في صحراء قاحلة... ينشر المطر ويغزل الأشواق بمداد الحزن.. بذور كانت تنتظر الرحمة والخلاص تحولت جمرا في زمن الاستعلاء. هذا الدمع هل يكشف لون الريح العاتية؟ أو يطهر النفوس من أحقاد راسية؟؟ تحول الدمع فوق أرضها إلى نار، فما الذي يحدث؟ من هذه السيدة؟

– إنها التي أخبرتك أنني قد قتلتها.

لقد رأيت صورة مشابهة لها عند أبي.. هي الأخرى بدأت بالكلام قبل أن يراودني الشك وتتطاير الأسئلة في عقلي.

– إنك على قيد الحياة، فلماذا تركت والدي؟

– كنت أعلم أنني الضحية وأنتم تفعلون كل ما يقدر الشيطان على فعله لأجل المال.

– إنها والدتك، فلا تكن أنت والزمن عليها.

أتدرون عدد الرماح التي اخترقت قلعتي الآن؟ توقفوا قليلاً لتشفى الجراح القديمة، توقفوا أرجوكم ولأجد فيكم رحمة تسع صدمتي. حاولت أن أهرب وأتصرف كأني لم أسمع شيئا، أردت أن أصدق أن أمي الحقيقية تجلس في مكان ما بخير وليس على فراش الموت.. سقطت على الأرض وأنا أتصرف بجنون، ولم تفارق لساني جملة: "إنك كاذب، إنك كاذب، أخبرني أنك كاذب".

تقدمت إيميلي وقالت: "نعم، إنك ابن خالتي، وكنت أعلم أنك ابنها منذ اللحظة التي بلغت فيها العاشرة عمرا، ويوم كنا نلعب دائما مع أبناء الحي. نعم كنت أعلم منذ البداية لكنني لم أخبرك، أتعلم أن الفتى الذي ساعدك كان صديقك وهو أيضا كان يعرف، أتدري أن والدك أيضا يعلم، كنا نعلم جميعا لكننا خشينا أن تتقبل كل هذا الماضي الأليم، لذا اخترنا الصمت وتركنا إفشاء الحقائق لنواصي الحياة. لو تحدثنا كنا سنقتل كما فعلوا بصديقك".

كيف لي أن أستوعب هذا، تخبرونني بالحقيقة وأمي على فراش الموت؟ أي خيبة هذه؟ أي شؤم آخذ بناصيتي؟ بأي ذنب أموت؟ هل بمقدورنا أن نموت مرتين؟ هل إلى خروج من سبيل؟ ولكن أين أمي؟ أريد

أن يخالط نفسي أنفاسها... يا أمي حرري الوثاق كي أنطلق. لحظاتي الأخيرة مع والدتي الحقيقية وهي تتنفس ما بداخلها من عمر.

تلك الفرحة بظهور الهلال، وهذا الحزن في ساحة القتال يناقض ضده ويحارب نده. هل أفرح بأمي أم أبكي فراش موتها. عزائي الوحيد أنني مت قبلها، قبل أن تحملني رياح الفقد إلى معانقتها ومداعبة رائحة عطرها الرائعة. وأعلم أنني على شرفات النهاية، لكنني آثرت أن أخوض معها في حديث الأم مع ولدها، أحلام على ناصية الريح لم تشاركني ميلادها أبدًا.

أمي: ماذا يكتب الابن لأمه إن كان لا يعرف شيئًا عنها، إن كان يجهل وجبتها المفضلة ورائحتها الخاصة وأحلامها، ماذا يكتب المرء عن شخص لا يعرفه وقد تبين أنه الذي تسبب في كل هذه الحرب التي أخوضها، قيل لي أنها قوية وتشبهك، فهي قد تعرضت لمحاولات عديدة للقتل والتعذيب، وحين علموا أنها حامل أخفاها جدي وقال لأبي أنه قتلها، تحمل عواقب خطيئة لم يفعلها فقط كي يبقي على حياتها وحياتي، علمت أن أمي التي ظننتها أمي هي التي أرادت قتل والدتي مرارا حتى قبل أن تتزوج أبي، قد حاولت التخلص من مصدر إزعاج لها.

أمي: سامحتك، وأعلم أنك كنت مجبرة على عدم البوح، لكنني أعدك أنني في كل مرة أشعر فيها أنني لست بخير سأزورك لأشاركك همي وتحاولي التخفيف عني. علمت على الأقل أن والدتي بشرية وليست تلك الآلية التي تولت تربيتي، إنني سعيد للغاية أن أمي كانت لم تكن بذلك الوصف البشع الذي رسمته تلك الماردة. إنها الجلال والجمال والقدوة الجميلة التي انتهت إلى نسيان. إنني أعلم الآن لمن أشبه على وجه الحقيقة لا الخيال. تكفلت بالكلمات فوق قبرك، قلت للعالم أنك كنت بطلة القصة، وللأسف لقد أبت حكايتي إلا أن يتمرد فيها الشخوص حين غادرتني رقية دون أن يكتمل السرد.

– من سيتكفل بالعلاج إذن؟

جدي:

ما كرهته ولا فررت منه، إنما إخفاؤه للسر لم يكن أمرا جيدًا، ولأنه يملك ذاكرة جرح بليغ لم أشأ أن أكون القاضية التي تطرحه أرضًا. فضلت أن أتجاوز، ولأنني فخور به نظير حمايته لوالدتي.

إيميلي.. تلك الفتاة التي ظننتها أُعجبت بي كما فُتنت بها، كانت حب طفولتي، لم تكن تلك النظرة الأولى أول نظرة حقًا، وهي أيضًا ابنة

خالتي التي تعرفت عليها بعد وفاة أمي بساعة. لم أنكر فضلها عليَّ، إذ ساعدتني على تقبل الكثير من الأشياء. ذات مزاج جميل ووجه بشوش لا يتوقف عن الضحك، شبيهة أمي تزيل الهم وترميه وتطمئن المرء. أما إيميلي فظلت طوال الوقت صامتة خجولة من أفعالها، أردت أن أطمئنها بأن لا شيء يستحق..

أصبحت علاقتنا قوية، انتفت المسافة وانفتح الأفق الضيق. تسكب أحلامها لتزين حلمي، الطبيعة واللوحات مكانها المفضل الذي دعتني لرؤيته. حيث النباتات والأزهار واللوحات الرائعة معلقة. توقفت صامدة أمام لوحتها الخاصة تحت عنوان "عنف المجتمع" (الصورة ستكون مرسومة فالكتاب)

قالت: أتدري أنني حلمت فقط بامتلاك سيارة خشبية وكرة ورقية وبعض الألوان والقليل من الحلوى. أردت فقط الحصول على حذاء ألعب به كرة القدم، تمنيت ألا أكون الوحيدة التي تسبح قدماها في الأرض، أردت أن أشعر بدفء يديَّ حين يشتد البرد، لكنه كان حلما بعيد المدى، حين كنت أرى كل من في مدرستي يرتدي أجود الثياب، والأطفال بجانبي غارقين في الحياة وأنا على الهامش.

تقول إيميلي: مارس الناس عليَّ العنف بأفكارهم وكلامهم ونظرتهم، ولم يتوقفوا عن العنف اللفظي، متجاوزين ذلك للعنف الجسدي، معتبرين الضرب سلطان التربية، حيث لم يكن للفتاة نصيب من أحلامها إلا الزواج والأولاد، ولا حل لخللها غير التربية القائمة على العنف. حين وجدت أن هذه الأشياء جد عادية في وطني وتُقاس على أنها تقاليد وتربية، تأثرت أولًا لأنني ضحية مثل آلاف الفتيات، وثانيا كان عزاؤنا واحدًا، حيث تكلمنا، تطلعنا إلى الحرية بمفهومنا الخاص ليس الذي يشبه في مرجعيته ثقافة الغرب، لن يستمع لنا أحد، ولن يحاول أحدهم تحويل هذه التربية إلا جريمة إنسانية تنتهك حق جميع الأحلام، وكم من حلم مات مع طفل وأستاذ غبي. يؤسفني أنني أستطيع الكتابة من دون معاقبة الذين تسببوا في موتي.

حين تقارن همومك التافهة بأحلام الآخرين تدرك القيمة الكامنة في فقدان الشيء، فأنا كنت غنيًّا ولم تكن أحلامي حينما كنت صغيرا تنبت حول الألعاب أو شيء من هذا القبيل. نشأت في موطن الثراء، وكل ما أريده يأتيني في لمحة، أما إيميلي فقد عانت أكثر مما ظننت أنني أعانيه. تبددت آلامي التافهة أمامها، أخبرتني أنها كانت تحب كرة القدم كثيرا، لكنها لم تكن تملك حذاء لتلعب به، ولا الأفق الذي يسع هذا الحلم. رغم كل العثرات حاولت أن تلعب، وكان الأمر شبيها بعصفور وسط

حشد من القطط المفترسة، لكونها الفتاة الوحيدة التي أحبت كرة القدم، فلم يحب أهل الحي ذلك ليتوجهوا عند والدتها ليحدثنها عن قلة تربيتها. كانت تبكي وتستشرف الحزن بقولها" ما ذنبي إن كانت الكرة تجعلني أشعر بنبض قلبي وحياته، ألم يعلموا أن الرسول الكريم –صلى الله عليه وسلم– قد قال: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه». وإني لأجد هذا مما لا يعني هؤلاء. إنني عندما أركض بجنون وأستمتع بكل لحظاتي أشعر أنني أستحق أن أستيقظ من جديد.

اجتمع أهل الحي وحاولوا قتلها، أخبرتني أنها توقفت ولم تعد تلعب الكرة بعد الآن. توقفت عن حفريات الذاكرة والجرح الجميل.

أبي:

غريب أمره، توفيت زوجته ولم يترك أعماله التافهة، من الذي حوله إلى جثة هامدة بلا مشاعر.

أنا:

هل حقًا أنا أنا؟ أنا الحزن والرعب والدهشة والغرابة، كتلة الصمت ومعالم في الطريق. أنا الانكسار والاصطدام والـلا شيء والانشطار

والانفجار والخل والصديق. أنا من أكون؟ توتر أم غضب، أنا لا أعرفني من قريب أو بعيد..

مرت ثلاثة أشهر كاملة، ووالدي لم يبعث أي رسالة يسأل فيها عني، وأما زوجته المحترمة لم أعد أكترث لها، وحال جدي يزداد سوءا، لذلك قررت أن أكتب رسائل لأبي أرسلها له حينما أشعر أنني قادر على مجابهته.

رسائل وداع

الرسالة الأولى: مرحبا أبي، لقد اشتقت إليك حقًا، أود لو أن كل ما حدث يختفي ونحيا مجددا. إنني الآن في حضن والدتي الحقيقية، وأفترض أنك حينها لن تصرخ علينا ولن تكسر قلب أحد منا. أعلم الحقيقة التي لا تفقه عنها شيئا، جدي أخبرني بذلك، فهو لم يقتلها كما ظننت، لقد حمانا أنا وأمي خوفًا عليها من حقد زوجتك الثرية، جدي العاقل وضع حريته وحياته وكرامته على المحكّ لأجلك، بينما أنت رميته خارج النص دون شفقة.

الرسالة الثانية: مرحبا، أنا بخير رغم تجاهلك، مرت أربعة أشهر، هل تتذكر؟ هل تكترث؟ أريد أن أخبرك عن والدك، لا تغلق الرسالة لأنني ذكرته. إنه على فراش الموت، وما يزال يلبي باسمك، ينشد

وصالك كي تسامحه، يتمنى أن تمسك يده آخر مرة. أفعل هذا فقط لأنني لا أود أن أراك أمام قبره بعد وفاته تبكي ترجو عودته، لأنني لن أرضى بك إلا قوياً غير متهالك، حتى وإن أقبلت متأخرا.

الرسالة الثالثة: خمسة أشهر فقط كانت كفيلة كي أتفوق في دراستي، حصلت على نقط رائعة، كم تمنيت أن تفتخر بي، كتبت هذه الرسالة بمساعدة إيميلي، آسف لم أعرفك عليها بعد، إنها صديقتي المقربة، والشخص الذي أود أن أكمل معه ما تبقى من حياتي، إنها مثقفة وتعشق الأدب، ستذهلك يا أبي، تحثني دوما على استجلاب روحك الغائبة، لا يتطلب منك كل هذا الكلام، قل له أحبك فقط... هل رأيت يا أبي كيف تجد الحلول وكيف تفتح لي أبوابا موصدة؟

الرسالة الرابعة: تأخرت لأن جدي قد تدهورت حالته، ولم يشأ عقلي أن ينطلق في الكتابة. مرت تسعة أشهر، انتهت بحصولي على النتائج الأولى بعد إيميلي بالتأكيد. فرح جدي من جديد رغم وعكته، وأنشدني أنشودة المطر، كم تمنينا أن تكون معنا لتكتمل الفرحة.

الرسالة الخامسة: إن كنت تود سماع الجانب المزيف فأنا بأفضل حال من دونك وأستمتع بحياتي، لكن الحقيقة لا تعدو أن تكون إلا في عوالمي المظلمة، سينفجر الذهن بالأسئلة، كيف لك أن تفعل هذا

بابنك، أنا غاضب منك، ولمجرد التفكير فيما فعلته بي ينتابني دافع كراهيتك، فلتقبل قبل أن تبوء بإثمي فتكون من الهالكين.

الرسالة السادسة: أخيرا نجحت وتفوقت، وقد تقدمت لخطبة إيميلي، لا أعلم أين أنت؟ كنت أريد إخبارك أنني ما زلت أفتقدك، أنا أيضًا آسف لأنني تمردت على حياتك الغنية بعدما كنت جزءا منها، أنا الآن في حضرة الذين لا تحبهم أبدًا.

والأمر الرائع أنني صديق لوالدك، حملت على عاتقي زمام العزم والعوض، خسرت الرهان يا أبي من حيث لم تشعر، وخسرت السماء بما تمطر. أعدك أنني سأرسل إليك هذه الرسائل، حينها سأكون قد تجاوزتك كما تجاوزت الأشياء السابقة.

ثقافات كاذبة

ماذا يفعل الجندي يا أبي حين يعود لمنزله ويجد زوجته وابنه ميتين، أيقتل نفسه أم ينتقم؟

– يبحث عن المال لينتقم.

– كيف ذلك؟

– إن حصوله على المال سيجعل نفوذه أقوى، وبإمكانه حينها أن يعرف من القاتل.

– ماذا إن كانت المفارقة أعمق من انتقام وقتل النفس، ماذا إن كانت متمحورة حول ذات الجندي ماذا إن بات في ساحة الحزن يتحين الركن الشديد.

– لا تستغرب إن استعجل سقوطه ألف مرة، ستتآكل روحه التي ظنها كالجبل. عليه أن يكفكف الدمع ويبلع الحزن.

كان يخبرني أبي دائما أن الحزن يجعلنا ضعفاء، والضعف خطيئة تجلب كل الشرور. كان يوقفني حين أبكي قائلاً: إن تمدد الحزن فيك واتخذ منك الوطن، فمت واقفًا ولا تبال.

كان للطفل أن يصرخ باكيا حين تنكسر لعبته، ويتشاجر عندما يحاول أحدهم سرقة الحلوى الخاصة به، كان من الضروري أن يحزن في الوقت الذي يستحق الحزن عليه وأن يسمح له بالمرور دون مقاومة، هذا الطفل الذي يسكنني يبكي كما يبكي الشاب والشابة والشيوخ، لا نتوقف عن البكاء لأننا أردنا ذلك، بل نتوقف لنتحول من الرشد إلى

الجنون، لأن المجتمع ظل يقول لأجدادنا توقفوا عن البكاء، يحاولون صنع آلي يحول الطفل الذي يغمرنا: لا تبتسم، لا تبك، لا تشارك، لا تنحنِ، لا تطلب المساعدة، لا تساعد ولا تنافس ولا تحاول ولا تطالب، ولا تعش، ولا تتألم، ولا تتكلم... إنها عناوين فضفاضة تحول دون إنسانية البشر التي لا تتطلب البكاء والانحناء في أوقات الضعف بقدر ما تستدعي المنافسة والمحاولة والاستمرار. إنها مسألة تتعلق بكيف تريد عقول القرن العشرين أن يحيوا حياة ليست ملكهم، واقع في ملك غيرهم، آلات بلا مشاعر.

نسخ بشرية متطايرة، لا شعور ولا امتنان، لا شكر ولا محبة. تزييف وتدليس وتخويف، لقد تمثل فيكم موقف أبي الذي كان أراد أن يحرمني من البكاء، لا تبك ولا تعشق سوى الرياح لعلك تظفر بهشيم حطه السيل من أعلى القمم. لا تسمع صراخك إلا الطيور ساعة السحر، ولا تغرد إلا لليلك المتهالك.

كان ذلك مخاض الجندي الذي ابتلعه الحوت وعجز عن التسبيح، والقائد الذي فقد الشراع وخرقت سفينته على مر كل الأزمان.

بين الحزن والتجاوز: يبدو أن الأمر صعب كي تقطع حبال الحقبة السوداء، أن تتسلح بالقوة من أجل أن تتجاوز الشخص الذي لم

يبادلك أي شعور. إنه لمن الصعب أن تقف أمام المرآة حزينا تخبر نفسك بسعادتها، تنثر الوهم كباحث عن إبرة في الهشيم. يصبح الأمر صعبا حين تدور في حلقة فارغة، حيث الأفكار المتطايرة تبتغي الخلاص والانطلاق.

كل الأشياء التي تقهر جوهرك حتما ستنتهي. لن يمنحك أحد شراع السفينة، ولن يحاول أحدهم التخفيف عنك ومواساتك والبحث عن قطتك.

الأمر عائد إليك، أوقف هذه الفوضى والعبث بتجاوزك وتقبلك، امنح مشاعرك القاتلة مساحة المرور والعبور كي تنتهي.

يقول أحد الغرقى:

لا شيء يعجبني؟

ويقول أحد الموتى:

هل إلى خروج من سبيل؟

ويقول الشهيد:

أنا للطريق..

وتقول الوالدة:

لا تودع أحدًا..

ويقول الحبيب:

نحن من عاندنا الظل.

مجتمع ناكر للجميل

لـن تقـف أمـام انتقـادات النـاس: ملبسـك ومشـربك ومسـتواك ووجهك وثلة من الذين يلمحون النور أو الظلام في قلبك، يوجد فقط من يتكلم عنك وينشر صكوك الأحكام، ليس بمقدورهم أن يقتحموا قلعة قوي حارسها.

أعمامي وخالاتي هم عائلتي، والدي ووالدتي، أنقذني الفقر لأول مرة من بشاعة الغنى، الأجزاء المظلمة، الأمل واليأس، الغربة والضياع، بابل وملحمة جلجامش، الأوديسة والرياح التي جاءت بالبكاء.

يقول أبي:

شرير قد نجح وآخر استفاد، فمن يوقف الناس؟ لقد حاولوا منذ القدم أن يحسنوا من أنفسهم ويتجاوزوا كل سوء فيهم، لكن فروا ولات حين مناص.

حقيقة

كأن المال وحده من سيفتقدني وليست عائلتي، خسرت الرهان حين أوهمت نفسي أني أملك وطنا أكسبه بعد صراعاتي، وأين الوطن بعد الصراع، بل هل يمكن لي الصراع لألجأ إلى وطن. حنين وشوق يباغتني، ونفس تريد ولا تأبى، لا تسعى بل تتمنى، تنفرد ولا تتحرر. لن أنكر أنني حاولت مرارا أن أغير نظرة الناس عني بعدما تغير حالي من الريحاني إلى جدي وأمي.

غيرت طريقة ملابسي، حديثي وكتابتي. أهملت أمرا مهمًّا عندما كنت أحاول لأجل من كتب عليه الجمود. الحقيقة الثابتة أمامي هي أن الناس يتكلمون عني جميلًا كنت أو قبيحا، راقيا أو متدنيا، تذكرت صوت يافع ووجه رقية، العم كامل والأشواق.

لا يهمهم سوى مساوئي والتنكيل بي وإبداء الجفاء بعد حقبة العز والكبرياء.

علمت أن الناس لن ترضى، لعنت أيام الاستعلاء بعدما تنكرت لي وكلفتني فقدان كل الرفاق.

سنابل يابسات

كيف حالك؟ ما الذي أذهب اخضرارك؟ هل باغتك بالأسئلة؟ هل يقتلك هذا الشعور؟ كيف انتهيت إلى هنا؟ لا المنية آتية ولا الدهر آت بها، كيف حالك بعد الانتهاء؟ أين سماؤك وأراضيك؟ كيف الحال بعد اللامبالاة؟ كيف الريح بلا نسيم؟ كيف الروح بلا جسد؟ أمي وأبي وجدي ويافع، رقية والأمجاد، إيميلي والوليد؟؟

ما أبشع أن يكون المرء ضحية لجنونه في مرحلة لا واعية، لا معجم يصف فداحة الأمر، أتذكر نسمات تلك الحقبة ثم أبوء بالخذلان. إنني كمن عاش ليحقق أحلامه ثم اكتشف بعدها الخيال بعينيه، هوس هنا وسر هناك، كيف لي بعد هذا العمر أن أصل إلى والدتي بعدما تربيت في حضن قاتلتها؟

أستشرف الحنين من نافذة صبري، وأتطلع إلى صور الرفاق الذين انتزعوا جميع ذكرياتي وفضلوا الموت والابتعاد. ماذا بعد الآن! رائحة

الفقر والغنى تصنعان عطرا يجلب السارقين. يد الناس تكاد تفتك بي، أمشي بخوف مشية المارشال المهزوم بعد حربين، ولحسن حظي أني أرتدي الصمود في وجه العاصفة. ساعة مثيرة للانتباه ولا أبالي بها، أخبرت سارقها أنها هدية مني له، على الأقل منحتها لمن يستحق.

تذكرت الهاتف والخادمة وجلباب والدي حين كنت أريد لقاءها. خطوة إلى الوراء، أوراق مجلس الإدارة وكشوف الحسابات البنكية والشيخ أحمد.

رأيت الطفل اليوم ومنتهى فرحه بعد أن قدم له والده سروالي المسروق هدية، أخبره أنها آخر مرة قد يجلب له فيها شيئا قبل أن يعتمد على نفسه. "إنني سعيد يا أبي حتى وإن علمت أنها المرة الأخيرة".. ربما هذا لا يذكرني بشيء من طرافة أبي أو مشاعره، هل فاتني قطار طفولتي؟ ماذا أفعل في عوالمي المظلمة؟

بينما أبي العزيز يصنع قصورا في ملكية تافهة، هنا يصنع اللين أعمارا وصروحا من المجد، هل يعقل ألا يزهر هذا الطفل وعائلته ترفض أن تتخلى عنه، سينبت ويحيا مما لا شك فيه. لقد رأيت أفضل ما يمكن للمرء أن يراه حين ألمه، فكيف لا يزهر؟، ربما لم يعيشوا في قصر ولم يتلذذوا بمشروبات ومأكولات حد التخمة، لم يناموا على فراش مريح،

ولم يرتدوا أجود الأقمشة، لكنهم يعيشون الحياة التي فقدها من يتوهمون السلطة عليها، أولئك الذين لم يهدهم الوهم إلى بعث أو نشور؟ كيف حال سنابلي السبعة؟ لو أن لي كل الكنايات لتحررت من عتابكم، لكنني أنا لست لي.

بعد الذي انتهيت إليه الآن ما كل الفقر وأحبابه على ضلالة من أنفسهم، معذورون في حديثهم عن المدينة الفاضلة للأغنياء، ولكن هل كتب الأغنياء عن الفقر؟ هل شخَّصوا الداء قبل أن ينفد للجسم؟ لقد كنت واحدًا منهم للأسف، وما كان لي إلا أن أعزف الكبرياء عند ساحته.

لطالما تصورت أن الدنيا قصيرة لدرجة أنها قد تصادفك يوما عند مصيبة أو انقلاب حال، قد تجود عليك بشخص يشبهك، لكنه مختلف عنك، كان له الحظ في أن يعيش أحلامك بدلًا عنك، والحقيقة أن ذلك الشخص هو الشيخ الذي يبدو في ظاهرك الآن، آخر تقاطع فيك بين الروح والنفس قبل الخراب. هو الذي تجلى يوم قال لي والداي: ادرس العلوم.. ولم أوافق، لأن روحي متعلقة بالكتابة وفنون الأدب والرسم، حيث إنني أحببتهم كثيرا، بينما المخطط الحقيقي لحياتي كان يقف أمامي ليخبرني بالقرارات التي من المفترض أنها من حقي، ليخبرني بأحلامي

الجديدة غير أحلامي وكتبي، وأصدقاء غير أصدقائي، حينها انتهيت إلى انزواء وابتعاد، ومع مرور الأيام أطفأت الشموع كي ينام قلبي، هذا لا يعني أنني لم أتمرد على والدي ولم أحاول أن أكتب خفية عنه، لكنني أختلق الأعذار لأجل أصدقائي الموجودين في الحي الذي جعلني والدي أمقته. كل رسوماتي احترقت واحدة تلو الأخرى، كتاباتي تمزقت على مرأًى ومسمع من روحي وعقلي.

كان الجاني والدًا عبث بحياتي ليجعلني ما أنا عليه، نسيت نفسي الحقيقية، صدقت أن الفقر فقر المال، آمنت بكراهية الناس ومشاكلهم، خاصة الذين ليسوا من مقامنا السابق، صدقت أنني بإمكاني أن ألتحف الحقد أمام حاجة الفقراء. حركاتهم وسكناتهم، أحياءهم وألوانهم، صدقت أنني سيئ وتصرفت على منوال ذلك، أين يجد الساعي روحه بعد طول غياب، وما كل هذا الهشيم؟

لن أنكر أنني لم أحاول بعدها فعل شيء، شعرت أن المحاولة فاشلة في قفص حديدي شيده إمبراطور أشر، كان لوالدي الفضل في كثير من الأحيان حقًا، فلولا حسن كرمه لكنت الآن مرميًّا في ساحة الخسة والذلة والهوان، لولا قسوته الممزوجة باللطف ما كنت لأطل من نافذة القصر مكابرا.

تعلمت السير مجددا دون أن يقول لي أحدهم: «ابن الثري»! وكان ذلك في حضرة من أكلهم الفقر عمرا. للمرة الأولى أفعل ما أريد دون موافقة أحد.

هذه الحرية المفاجئة جعلت الطفل السجين بداخلي يظهر من جديد، يبدو أنني قد تحررت من عبادة أمس.

سمعت صوتا بداخلي يتردد "الآن قد وجبت". اعتقدت أنه قد وجب الرقص أو الغناء لكنه كان صوت الكتابة والرسم..." بزغ فجر الحرية بعد سجن طويل، وأمكنني التنفس دون استئذان أحد، مثل بقية الناس. هذا الأمر جعلني أرغب بالعيش هنا بين نسائم الفقراء ولطائفهم، أود حقًا أن يكون لي اسم يتذكره أحدهم، لأنهم أناس يتطهرون.

أود أن أركض لأجل الكائن والممكن، وأقاتل على ناصية حلم جديد، أريد فعل الكثير في هذه الحياة بعد أن أبصرت الآن.

الحب: الكذبة الصادقة.

لطالما أخبرني والدي أن أفضل السبل لدوام شيء تعزه هو ألا تظهر الاهتمام به، وإن أحرقك لهيب الاشتياق فاتركه للزمان وسيأتيك به.

أراد العزيز أن ينقش أول الدروس على كيان منشطر مثله، فما كان إلا أن حضن سماء ذاكرته مسترجعا دروس جدي لعلها تنفعني.

– هل تتقن لعبة التجاهل والنسيان؟

– تماما مثلما تتقنهما.

– أن تمتلك ما تحب، تعامل معه بسخرية في البداية فإن نجحت في إبداء ذلك فقد أقبل أوان نيله.

– الامتلاك والسخرية، التجاهل والنسيان، هل تحول الحزن جمرا بهذا الشكل؟

لقد كان والدي من صرعى الحب الذي لم يبقِ لشعوره أثرا، كنت أتساءل في القصر عن سبب إعراضه عني لأسابيع وشهور، وأبادله العتاب أحيانا دون أن يقدم عذرا يسعه عفوي، لكن الحقيقة أنه ينتهي كل ليلة إلى جمره وحيدًا كئيبا يحاول أن يفهم كيف قطعت الدنيا أوصاله

بهذا الشكل، الأميرة التي جنت على قلبه وتركته وحيدًا وآثرت الرحيل في ريعان شبابها.

الفتاة التي استوطنت أرضه واتخذت من قلبه سكنًا لنبضه، كان متعلقًا بها بشكل مرعب، تقطن بالحي الفقير المغلوب على أمره، لما قدمها لجدي رفضها، وحين علم أنه قد قرر الزواج بها، أرسل بعض الزبانية ليقتلوها كي تذوب رائحة الفقر من هذه العائلة. غضب أبي كثيرا واستسلم للحزن قبل أن يتخطفه موت بخلاف المعهود. قسوة أبيه من جهة، ومصير عائلة الريحاني من جهة ثانية، وشجاعة الحب وثبات الموقف كآخر عهد في ميزان الرجولة.

لقد قتل الوحش الكاسر روحين بعد أن أعلنا وطنًا للحب بدل الكراهية والأحقاد. لم يكن يتصور أن يحيا القتيل من جديد حتى ولو مرت على الوأد أعمار.

كل الظروف كانت قبل هذا الوحش توحي بميلاد نور جديد، إلى أن ظهرت ابنة رجل الأعمال أبي الوليد عمارة المليارديرـ فهي المناسبة كي تطوى صفحة الروح الزكية التي تنتمي للعالم السفلي.

أغلقت صفحة أمي غصبا بغير ذنب، علمت الآن لماذا كان والدي يتحدث مع أمي ببرودة وهي الأخرى تبادله الشعور بالقساوة. كلاهما كان صفقة ناجحة، وأنا كنت كبش الفداء، قد يقسو القلب عندما يكسر ويضيع وينتهي إلى خراب لكن ليس للدرجة التي يصبح فيها الجميع يعاني منه ومعه.

توفت رقية وتركتني فراغًا بلا هواء، جبلًا بلا أوتاد، ازداد وقع الدرس على قلبي خاصة بعد أن رأيت في حضرة الغالية زوال الداء وانتهاء المهموم من همومه.

من يشتري الرياح وسنابلي؟ من يأتيني بروحي التي فاضت إلى السماء بعدها؟ هل يستطيع المحب أن يفعل عكس ما فعله جدي؟

لقد انتهى أبي إلى حطام ومن حيث لا يدري، فإن ابنه قد أتم وردة المستحيل بعدما ضاع وطن لم يحي قتيله بعد.

الحي

لقد رأيت شجار الناس كل دقيقة في الحي، سمعت أعذارا تافهة للشجار، وصراخا يجلب الهلع. بدا الأمر مخيفًا، كنت كسجين جديد

غريب بين سجناء غيري. لا يتوقف ذلك أبدًا، فما إن يصمت شخص حتى يتحرر الآخر ليتشاجر، لم يكن هذا الصراخ ولا الشجار ولا كسر الأبواب والنوافذ من شيمي ولا من محبيه، اعتدت السكينة والهدوء، وأعلم أنه لا أمان لي في بيئة مثل هذه. أتعلم كيف يلعب الطفل الصغير البريء الذي لطالما شاهدنا أمثاله في المدارس والحدائق، أتعلم كيف يعتاد الحرب التي يعيش وسطها. كيف اعتاد القنابل والأحلام المطروحة أرضًا، كيف نسج الألم وما عاد بعد الخوف خوف.

أزالت الحرب مخاوف طفل بريء يود لو يركض وراء كرة القدم، ولم يعد خوفه من الظلام يشغل باله، لقد أفل النجم صريع نواكب الدهر المفاجئة.

يركض الطفل هربا من موته كي لا يصبح جثة هامدة، يهرب من شيء لا يعرفه، عزاؤه الوحيد أنه جزء من قصة لم تكملها أمه التي تخطّفها الموت، بعض الأطفال يرسمون حياتهم الطبيعية في مقتل الخريف، وهذا الطفل ما يزال في خراب الحرب كجلمود صخر، كبسمة من السماء، صريع الأبوين، تائها على هامش الأحداث، والثاني يبتسم لأنه نجا من رصاصة كادت توقف قلبه عن الحياة، كلا الطفلين يتساءل، فالأول يسأل أسئلة جميلة وغريبة أيضًا، لكن الآخر يسأل بعد شهرين

من جوعه وهربه، عن موته، ويرجو خالقه أن يهبه اللحظة التي يلتقي فيها بعائلته مجددا، أترى كيف أن المطالب بينهم مختلفة رغم أن كليهما بريئان، بينما العالم الذي يعيشان فيه مختلف للحد الذي يصرفك عن التفكير فيه.

لم تكن الرصاصات سوى بضع من بشر، أبى لهم الإنسان من مكان بعيد! في حيي جيران يحذون حذو الأفاعي ساعة السحر. حياة مملة تبعث على الشقاء وانعدام فرص الأخذ والعطاء، وقل فيهم من يسمو ويرتقي في سلم الإنسانية شبرا وباعا.

يلقون بوابل من الكلمات التي إن وزنت أسقطت جبلًا من أثر وقعها عليه، فما بالك بطفل يمسك اليقين سرابا يتفلت من عقاله بعد وفاة والدته وتحول والده إلى شخص معدم.

ومضات كفيلة بجعلك أداة قتل أيضًا، ولم تجعلني أختلف عن طفل الحروب. كنت أناشد موتي ليأتي، ولأنني كنت الرهينة وعدد القاتلين يزداد كل يوم، أجد ضالتي في الهروب من هنا وهناك دون إمعان للنظر في المكان الآمن الذي يسع شتاتي وانشطاري بين روحين آثرت إحداهما الرحيل عني إلى جوار رب العالمين، في حين أن الثانية لا أعلم بأي واد حطت الرحال.

تمر الأيام ويزداد همي ويقيني في الصبح الذي لن يأتي، فإما أن تنجو أو إنك لن تلامس البعث مرة أخرى. كان عليَّ أن أصبح مثلهم، أن أعتاد الصراخ في الثانية ليلًا ولا ينتابني خوف أو صداع. النوم والاستيقاظ بين الفخاخ ليس صعبا كما يبدو، إنما هو قاسٍ، ويستحسن لشخص تجرع الصبر حرزا ضد الألم.

تلاحقني النظرات والشتائم بسبب ملابسي وصمتي، فهل حقًا أنا أنا؟

ما عادت الكلمات تجدي نفعا معي بعدما كنت أرعى النجوم والبكاء خائفًا مرعوبا من احتفالاتهم الليلية، لم يكن المؤلم كلامهم ولا عنفهم ولا غباؤهم، إنما وعيهم التام بأنهم مخطئون، كنت قد صادفت أحدهم أمام المتجر، أتذكر أنني اشتريت الحليب وبعض الحلوى، أقف أمام البقال بصمت وأستمع لما يحدث ورائي دون لفت الانتباه، سمعت شخصا كبيرا في السن يحادث صديقه عن فتاة بالحي لا تبادره الاهتمام، قد قال بكلمة ثقيلة على مسمعي: "جميع النساء سكة واحدة". توقف العالم بداخلي وأنا أصوغ هذه المحادثة بشكل علني أمامي قاصدًا إيجاد المخطئ، تركت المكان وتوجهت للمنزل، ولم يكن النوم صديقًا لي، حينها وأنا أحمل قضية فاسدة قد سمعتها، فكرت كثيرا وأنا أقول بصوت

مسموع، أليس من حق هذا الرجل أن يكن الاحترام لفتاة بعمر ابنته؟ هل معنى ذلك أن رقية حبيبتي التي لم أرها من نفس السكة؟ أنى لهم الحكم بهذه الطريقة؟

على الرغم من كونه برأ نفسه من تبعات كلامه راقبتهم، وتبين لي لاحقًا أن العجوز ظالم بحق.

يبدو أن الفتاة لم تهتد إلى كلماته عزيزة نفس مثل والدها، لا شك أن والدتي كانت كذلك. إنني أغزل الدمع فداء، والليالي ذوات العدد نحيبا ممزوجا بالشوق إلى وجه لم يكتب لي أن أراه...

لن يصدق أحدهم أن العجوز يتحرش بالفتاة، بل كيف يصدقون وهم جميعا على علم بهذا الأمر؟!

إن الحب حب رقية لأبي، هكذا يطلعني حلمي وبصيرتي النافذة، الحب لمن خاف عليك التهلكة وسلك الدرب الذي يخاله الناس صعبا.

راقبتها دائما، وددت مساعدتها لكنني لا أستطيع أن أمحو ما فعله الناس لسنين من عقلها، فنحن الرجال بالنسبة لها مجرد وحوش. وأعلم وسط هذا السراب أن الأمر لم يتوقف عند هذه الفتاة، فكل يوم أرى أشياء جديدة.

أبصرت الحياة الحقيقية والتعيسة التي تعيشها فتيات هذه الأحياء. حمدت الله كثيرا لأنني ولدت ذكرا، فما كان ليسعني السلام لو كنت غير ذلك.

صديق

ضحكة جميلة وأنف عريض مع وجه دائري ووجنتان كبيرتان وأسنان بيضاء لامعة، والسماء كانت عينيه بقدر سوادهما، واللطف كان صوته، والأمل ابتسامته، كان شبيها وأكثر من ذلك، رغم أنه تعرض لحادث بسبب عائلتي لئلا يتحدث مجددا، بينما القدر قد أوجد خطة بديلة، فبعد كل هذا تعافى وأصبح قادرا على الكلام، وليس صدفة أنني أشعر بأنه أقرب إليَّ من الجميع. كان السبب في أنه صديق طفولتي رغم أنني نسيت صورة وجهه، إنه من الأشخاص الذين يضحون بأنفسهم لأجل من يحبون. قد يسجن نفسه لأيام، ولا يحدث أحدًا، فقط لأنه شعر أنني في خطر بجانبه، نعم إنه من هذا الطراز الرفيع. تعلو محياه ريح الكرم والسخاء، وهو الأمر جعله أعلى مقاما مني، أحسن خلقًا مني. إن الحقيقة أنني لم أصادف أشخاصا أنقياء الروح مثله.

أتذكر بعض الأيام الجميلة التي قضيناها معا في المدرسة، تخاصمنا ولم نعد نتحدث، شعر الأستاذ بذلك وأحكم سؤاله: ماذا بكما؟ أنتما

أعز صديقين هنا، أخبراني ما الذي حدث؟ كنت أنا المخطئ، وحين تكلم أخبر الأستاذ أنه هو الذي بادر في الخطأ. دافع عني ونحن في ساحة الخصام، انتابتني الحيرة، هل يفعل شخص عادي مثل هذا؟ بل الرائع فيه هو أنه في كل مرة يحدث مثل هذا الخصام ويقابل أحدهم ليسأله، يتحدث وكأنه لم يحدث شيء بيننا... "لا ينسى الود الذي كان بيننا حتى في هذه الساحة التي تعصف بصفاء القلوب وترمي بها في مكان سحيق". كان عاقلاً، وأنا الذي أمتح من الحماقة عمرا، يضحك بلا توقف، محب للبساطة في كل شيء بيد أن الملتزم يتحدث عنه بسطحية لا أكثر، لا أفقه شيئا في أسس العرفان والامتنان. يستحق هذا الشخص أن يعرفه الناس، لذلك أحببت أن يعلم الناس أنه رغم ضبابية الأفق وسوء النوايا التي أعقبت الحياة إلى سراب فما يزال الخير والحب ممتدين إلى الأبد.

ابتي ذو العاطفة الجياشة

عانيت من صدمة تركتني أبتعد وأبعد عني الناس من أحبائي، فهان عليَّ طفلي متأثرا بما حدث لي، قد كانت لي الفرصة في أن أعيش شيئا يجعلني أشكر نفسي لأجله، وأن أكون رؤيا جديدة للكون والحياة

بشكل عام. تجاوزت أبي ورحيله عني، تذكرت أنه في مقابل أبي هناك من يحتاجني أكثر، ابني ذكراي التي خطت برائحة الحب المعتق... كان اليوم الثاني الذي رأيته فيه بعدما مر عن رحيلي زمن طويل. أدخلتني والدة رقية وهي تهمس لي بصوت خافت: إن الطفل قد أخذته سنة نوم، مشيت بخطوات متثاقلة بعين الأم على رضيعها، يا ترى هل يشبهني أم أنه ورث سمت والدته، أرى ملامحه البريئة التي تبدت فيها فقيدة روحي، مسحت على رأسه الرطب وأمسكت بيده الصغيرة التي لم تترك إصبعي لساعات، لم أستطع أن أترك يده كما فعلت في المرة الأولى.. تعددت زياراتي له ولم تكن الأيام تمر دونه، بينما يرغب جدي في رؤيته بعدما أن أخبرته إلا أنني لم أكن قادرا على جلبه لهذا الحي، قررت أن أتركته عند جدته لفترات حتى أتمكن من التنقل للمنزل الموجود بالقرية وهناك سنكون معا ولأول مرة كما حلمنا وشئنا للوهلة الأولى.

اكتب ما شئت من أسطر تفيض بدمع كلماتك وكأنك استشرفت الحرف معي.

هذه صفحة من صفحات ذاكرة الجرح الجميل التي تسكب الشوق لأول منزل حالت بينها وبينه نوائب الدهر.

هل يشبع بطن السارق بعد الجرم؟

هل يرتاح المنتقم بعد الفعل؟

هل يشعر الفقير بعد الغنى؟

كنت أود أن أعرف حال كل واحد بعد أن تمنحه الحياة فرصة أخرى، كنت أود أن أعلم حقيقة الأمر.

أدركت أن السارق لا يشبع أبدًا، ولا يتوقف عن فعلته حتى وإن ملك الدنيا، لأن جوهره قد انحرف وانتهى إلى تعفن، ولم تعد العبر كافية لنزع الغل المتعمق في منتهى الكيان.

علمت أن المنتقم مثل قاتله، ولطالما أيقنت أن خير حكم بين البشر هو ما تبقى من ضميرهم. خير قاضٍ ذلك الذي ينبثق نوره في روح كل إنسان عندما يثبت له أنه قد أخطأ حكما أو فعلًا في حق أحدهم، وهو ما أجدني أجسده بعد هذه الغربة التي تخطفتني وألقت بشروقي إلى غروب.

قصة

كان فيما وئى وانتهى عائلة تفيض ثراء، وتكبرا، وتعاليا، ونفوذاً، لا تجد أقدامهم إلى الأرض سبيلاً. عائلة تقتل كل من كان السند والشغف، تناضل من أجل الخراب المنتهي إلى هشيم تذروه رياح الغرور والاستعلاء. تصارع نفسها لتجمع ما تيسر من حطام الدنيا، ونسيت أن بداخل السجن طفلاً لم يكبر قط، ولم يشتد عوده قبل منحه طعم الحياة المفعم بالحنان والأمان، نسوا أن القصور لا تعانق وأن المال وحده غير كفيل بشراء راحة باله ومستقره وسكنه. كبر الطفل وسار على خطى والديه، صار قاسيا فظًا يهرب من روحه وكيانه، من يتخيل أن الطفل نسي كيف يحب وكيف يساند ويبكي ويتكلم، ما السبيل لكي تطمئن نفسه، أصبح شاباً ولم يتبقَّ من شغف مرحلته إلا بقية مما تركه أهله من سوء وغل وحقد. لحسن الحظ أن الدنيا بلا مأمن لا تترك للمتكبر مقاما، تتقلب بين العزة والذلة، لا تبقي ولا تذر ثروة لترمي البشر إلى ساحة الوحدة تتخطفه ما قدمت يداه من بطش. وتجزي من سرق أحلام الناس بالخزي والعار. أصبحت العائلة فقيرة جدًا، ولم يعد

للتكبر ولا التفاخر قيمة بعد الآن. لقد جاء دور الأب ليسرق ربيع طفولة ابنه، خاصة بعدما أرسله لجده بعيدًا عنه.

توقفت الحياة لدى الشاب ولم يتقبل أن شخصا مثله سيعيش في بيئة لا تناسبه وسط حي فقير مع ناس بسطاء، لم يفهم مغزى القدر، وأنكر كل هذه الصدف حتى قابل حلقته المتوهجة التي جعلته يدرك مع مرور الوقت أن الحكمة من بقائه هنا هي إعادة الشغف لروحه، جعلته يرى النور من جديد دون الحاجة لأحد، وأصبح الجد قريبا منه، صادقه وأحبه، واختار الشاب أن يعيش شبابه لا أن يضحي به كما ضحى بطفولته. أيقن أن الروح تحيا تبعا لإرادة صاحبها، ثم صار فيما بعد كاتبا كما تمنى منذ طفولته وكما حلم أن يكون طبيبا نفسيًّا ومصلحا اجتماعيًّا، خاصة بعدما كرس شبابه في مساعدة ضحايا المجتمع، وعاد ليلتقي بابنه من جديد ليكملا حلمهما مع إيميلي في منزل الذكرى المتبقي من رقية، تيقنت أنني لا بد أن أضيف الفرح لا الحزن لحياتي مهما كان الظرف.

اعتراف

أسأل نفسي أحيانًا، هل أستحق كل هذا؟ وهل يستحق المجرم والقاتل الإعدام؟ أنا لست مجرما ولا سارقًا، ولا أفعل شيئا خارج القانون، فلم هذا العقاب الآن؟ وهل الغم والندم جريمتان تؤاخذ الدنيا بهما كل إنسان لم يكن الحظ إلا شؤما عليه؟

فإن كانا بحق جريمتين روحيتين فأنا أعترف أنني لطالما كنت أرضًا يروى الغم والهم من نبعها.

لا أتذكر متى وكم عدد المرات التي صرخت فيها هولًا ورعبا، بل حسرة على ما يدور بنفسي بداخلي، بينما كان بإمكاني التناسي. لقد شوه الأمر روحي وأعقبها إلى شتات...

ماذا عن النهاية

لقد جاءني الخبر بكوني سأصبح كاتبا، وقد أبلغني أستاذي أنني سأكتب الجزء الثاني من قصتي التي أخبرته عنها وأحبها، ليقرر أنه من اللازم نشرها، لقد اقترب ذلك المولود الفقيد سابقًا من النهاية، والتي لا تعد نهاية له، بل لكل الذين تذوقوا طعم المعاناة لملامسة مجدهم، للذين لم يتوقفوا، أولئك الأوفياء لأرواحهم.

يخفق قلبي وأنا في انتظار أبي بعد نيف وثلاثين سنة. أتطلع لرؤية ملامحه واستنشاق رائحته، لم يكن محظوظًا هو الآخر بين دروب الحياة وانتكاساته الشخصية، خصوصا حبيبتي رقية التي لم يكتب لي أن أراها...

انتظرته كعائد من حرب مظفر بالنصر لأصرخ فرحا بقدومه، لكون الحياة أهدتنا فرصة اللقاء أخيرا.

نوائب الدهر من حالة بيننا وسخرية القدر، غصنان مطروحان أرضًا منذ وفاة أمي ورقية. لم يصدق إفلاسه بعدما تربعت عائلة الريحاني على عرش الغنى لسنين قبل أن تنتهي إلى زوال.

تقبل

فخور بنفسي رغم كل شيء، فخور بأنني تداركت الأمر قبل فواته، أنا سعيد أيضًا لأن الحياة أتاحت لي الفرصة لأكون ممن أحبوا التغيير الذي أخذ منهم نفسيًّا وجسديًّا واجتماعيًّا، كأنك ولدت من جديد حينما تدرك أنك أصبحت تتقبل الكثير من الأشياء وتتجاوز العديد من الأفكار، فأنت تعيش الآن وللغد، لتصبح أفضل من ذي قبل، وأحمد

الله الذي وهب لي جدًّا سراجا منيرا لدربي، وزوجة نقلتني من عالمي إلى عالمها العظيم، أما أمي ورقية فرحمة الله على روحكما، فلنا لقاء عند الحوض بمشيئته –عز وجل–، لنخط معا تاريخًا جديدًا بعيدًا عن الفناء والزوال.

أقنعة

منذ اللحظة التي شهدت فيها تحولات عديدة علمت أن للناس مقدرةً على التعايش مع الكثير من المشاعر بمقدار قد يقتل صاحبها، لا أعلم كيف كنت أعيش في ظلال الحزن واليأس، الشوق والحب، الكره والندم. انتقلت نحو شاطئ المحبة والصدق والتعايش، نحو الحياة مجددا. أتخيل كيف لشخص أن يحمل بداخله كل هذه الشخصيات المتناقضة، وأهم من ذلك كيف له أن يبدي رأيا وهو لا يدري بأي قناع وجب التستر به، فأنا كنت أحمل دائما قناع التكبر والتعالي والنرجسية للخارج، حيث كان هذا القناع مفضلًا لي، بينما قناع الحزن والشفقة في أقصى نبض في الكيان. المرآة وحدها من ترى وجهي الحقيقي، حتى صديقي المقرب لن يتخيل أنني أزوره وأتسكع معه بقناع مزيف، كان وجهي مخيفًا لي أيضًا، فكلما أبصرته من بعيد شعرت بالغثيان وعدم

الثقة والخوف، لم تكن ملامحي هي السيئة فهذا الوجه يمثل جانبا من خبثي وتصرفاتي كلها، كان يمثلني ولم أكن أتقبلني، كنت أخاف مني لأن وراء كل تلك الأقنعة وجها مرعبا للغاية، قادرا على إرغام كل تلك الأقنعة على التراجع، كان الوجه المخفي مكان التمرد، قوياً لدرجة مخيفة، حيث الطفل المبدع يوجد خلف كل تلك الأقنعة، يقول البعض: إن كانت لك مخاوف، فاعمل على تجاوزها كي لا تصبح مخاوف بعدها... وكأنني كنت ممن يستمع لأحد! لولا أن الفقر اجتاحنا وتخلى عني والدي لرميت كل تلك الأقنعة. لم يساعدني أي قناع على تجاوز ذاكرة جرحي الجميل، ولم يبقَ غير وجهي الذي أخفيته، وجهي هذا الذي لم يتقبله أحد غيري، كان هو الرابح في كل المعارك. لم أستعر قناعا بعد هذا، وقررت أن أتغلب على مخاوفي، فالخوف لا يزول بالهروب أو بخوف أكبر منه بقدر ما ينتهي بتقبله والتعايش معه قلبا وقالبا. لم أعد بحاجة لأي قناع يبسط راحة يدي ويجعلني متوترا غير آمنٍ في سربي.

قصة حلم يتحقق

قدمت طلب التحاقي بجامعة الحسن الثاني في مسلك علم النفس بالدار البيضاء عين الشق منذ شهر، وقد تم الموافقة عليه أخيرا، أردت

أن أسبر أغوار هذه الذات التي جعلتني تائها في السابق، والأكثر من هذا كان الهدف من أجل الذين عانوا أكثر مني ولم يجدوا بديلاً للدواء كعلاج، أنا هنا أدرس لأجلهم لأكتسب عقلاً ونبضاً يضخ بإنسانية أمامهم، لا أود أن يكون الانتحار مسكنا للآلام بعد الآن، لا أريد أن أشاهد الناس يقفزون لأن الآخرين عجزوا عن فهمهم.. أود أن أفتعل شجارا بين مجتمعي الذي يفرض الحجر الفكري على متمرديه، لأنني ممن حاولوا الانتحار آلاف المرات من دون أن أهتدي إلى بيئة تحترم فيك النبض والكيان قبل الهوية والذات. من المخزي أن تتذكر كل يوم كيف خططت لعملية انتحارك، كيف ودعت أشياءك وقلت لصديقك أن يتركك وشأنك، مخذولاً من العالم بأسره والدموع تجري بماء منهمر، تتوقف لتقول وداعا للعالم وأنت تضع رجلاً على الحائط، فيسقط هذا الحيز ويدفعك للرجوع والمحاولة مجددا في اليوم التالي، لقد كان عاما حزينا لا يغاث فيه الناس ولا يعصرون.

وداع أبي

لقد تذكر أخيرا أنه يملك ابنا، اختار كلمات قاسية ليضعها في رسالته.

أنا آسف، لم أكن أبا مناسبا.. أنا خارج البلاد، وقد أعود متأخرا ولا أحضر حفلة زفافك.

الريحاني

– لا بأس بهذا الكم من شخص مثلك لشخص مثلي، أنا أفهم أن القلب يحوي أكثر من هذا الذي قلته، وأعلم أن القلم سلبك بعض أحرفك المميزة، وأن كبرياءك جعلتك تتوقف عند السطر الأول.

– لا يهمني كيف كتبت وماذا كتبت، إنما أردت فقط أن أستيقظ يوما أمام رسالتك هذه.

تذكر أنك حر بالقدر الذي تفكر فيه أنك كذلك، وأنك بخير بالقدر الذي تظن أنك أهل له...

روابط مهمّة لكل كاتب، ستساعدك على تنمية مهاراتك الكتابية.

شروط النشر في دار بسمة للنشر الإلكتروني

اشترك في النشرة البريدية الآن

اسأل سؤالك هنا

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا –في محاولة منا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايين من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشر أعمالُها بين القرأة والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

المحتويات

الإهداء 6
الفصل الأول 7
الأسرة والعائلة 8
الفصل الثاني 101
بداية الحياة 102
هدنة مع روحي 104
ما الهدف من حياتي؟ 111
سر بيني وبين رقية 114
مرارة الحقيقة المتجددة 116
قوة أم غباء 123
مدرسة الأصدقاء 124
قيمة الانخراط 132
رسائل وداع 143
ثقافات كاذبة 145
مجتمع ناكر للجميل 150

حقيقة 151
سنابل يابسات 152
الحي 159
صديق 164
ابني ذو العاطفة الجياشة 165
قصة 168
اعتراف 169
ماذا عن النهاية 170
تقبل 171
أقنعة 172
قصة حلم يتحقق 173
وداع أبي 175

رضى ميقبال، أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي مادة اللغة العربية، متخصص في الكتابة النقدية والشعرية والقصصية. حاصل على الباكالوريا شعبة الآداب سنة 2011.
حاصل على شهادة الإجازة الأساسية في الأدب العربي من جامعة الحسن الثاني كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق موسم 2014-22015.
حاصل على الإجازة المهنية ضمن البرنامج الحكومي 10000 إطار تربوي مسلك تدريس اللغة العربية في سلك الثانوي التأهيلي موسم 2015-2016.

من أعمالي القصصية
رواية لصوص أبرياء (دار بسمة)
أجنحة القمر (مجموعة قصصية) .

سلطانُ الرِّيحِ العَاصفْ

رواية تأخذك في رحلة داخل عواصف النفس البشرية، حيث يقف "البطل" على قمة العالم، بثروةٍ طائلة وغرورٍ لا يُضاهى، يظن أن لا شيء يمكن أن يهز عرشه. لكن حين تخطف الحياة منه أعزّ من لديه-زوجته ووالديه-ينهار البرج العاجي، وينكشف الإنسان الذي لطالما أخفاه خلف قناع الكبرياء.
في دوامة من الحزن والتناقضات، يجد نفسه يختبر الحياة من زاوية لم يعرفها من قبل، ذائقًا مرارة الفقد، وحرقة الوحدة، وعذاب الأسئلة التي لا إجابة لها.
رواية عن التحول، عن صراع الإنسان مع ذاته، وعن الكبرياء حين يُجبر على الانحناء.
هل سيجد "البطل" الخلاص في قلب العاصفة؟ أم أن الريح ستبتلعه إلى الأبد؟

bassmabook
00212771814934
bassmabook@gmail.com